دانيال بِناك

متعة القراءة





مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

متعة القراءة

خطوط العناوين: حمدي طبارة
تصميم الغلاف: سومر كوكبي

دانيال بِناك

متعة القراءة

نقله عن الفرنسية
يوسف الحمادة



الطبعة الأولى 2015

ISBN 978-6-14425-797-5

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

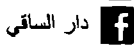
Avec le soutien du



يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على





Dar Al Saqi

المحتويات

لأجل فرانكلين ريست
قارئ الروايات الكبير
والقارئ الروائي.

إلى ذكرى أبي،
وذكرى فرانك فليغ اليومية.

رجاءً (أتوسّل إليكم)
لا تستخدموا هذه الصفحات
كوسيلة تعذيب تربوي.

د. ب.

الفصل الأول

ولادة الكيميائي

١

لا يتحمّل فعل "قرأ" صيغة الأمر. وهو اشمئزاز تشاطره إياه عدة أفعال أخرى كفعل "أحبَّ"... وفعل "حَلَمَ"...

طبعاً تبقى المحاولة ممكنة. هيا لنحاول: "أحِبّني!" "اِحْلَم!" "اِقرأ!"، "أقول لك اقرأ! العمى! آمرك بأن تقرأ!".

– اصعد إلى غرفتك واقرأ!

والنتيجة؟

لا شيء.

لقد نام فوق كتابه. بدت له النافذة فجأةً مفتوحة بشكل واسع جداً ومطلّة على شيء مثير للرغبة. ومنها حلّق عالياً، كي يهرب من الكتاب. لكنه نوم محترز، إذ الكتاب لا يزال مفتوحاً أمامه. ولو شققنا باب غرفته لوجدناه جالساً إلى مكتبه يقرأ برزانة. وحتى لو صعدنا بخفة كبيرة فإنه، من سطح نومه، سيتنبّه إلى قدومنا.

– ما قولك، أيعجبك الكتاب؟

ولن يجيب على تساؤلنا إذ سيكون ذلك بمثابة جريمة كبرى، فالكتاب مقدّس. كيف يمكننا بعد ذلك ألاّ نحب القراءة؟ لا، سيقول لنا فقط إن المقاطع الوصفية طويلة بشكل مفرط.

وهكذا، بعد أن اطمأنّنا، نعود إلى تلفازنا. ومن الممكن أيضاً أن تكون عبارته دافعاً لنقاش حام بيننا وبين آخرين مثلنا...

– إنه يجد المقاطعَ الوصفية طويلة جداً. يجب أن نفهم موقفه، فنحن في عصر الأجهزة السمعية البصرية. أما روائيو القرن التاسع عشر فقد كان عليهم

بالطبع أن يصفوا كل شيءٍ...

- لكن ليس هذا سبباً لكي يقفز فوق نصف عدد الصفحات!...

يجب ألاّ نتعب أنفسنا، فقد نام.

٢

وتزداد عدم قدرتنا على فهم هذا الاشمئزاز من القراءة خاصةً إذا كنا ننتمي إلى جيل، إلى مرحلة، إلى وسط، إلى عائلة، حيث كانت النزعة السائدة تقوم بالأحرى على منعنا من القراءة.

– هيّا توقف عن القراءة، ستُهلك عينيك!

– من الأفضل أن تخرج للعب، فالطقس رائع.

– أطفئ النور! فالوقت متأخر!

نعم، لم تكن القراءة ممكنة آنذاك، فقد كان الطقس دوماً رائعاً والليل شديد الحلكة.

لاحظوا أن الفعل في الحالتين، حالة السماح بالقراءة أو منعها، قد صُرِّف بصيغة الأمر. حتى في الماضي كنّا كما نحن الآن. لقد كانت القراءة حينذاك فعل تمرّد. فإضافةً إلى اكتشاف الرواية كانت هناك الإثارة التي يولّدها عدم الخضوع لإرادة الأهل. روعة مضاعفة! آه، يا لذكرى ساعات القراءة تلك التي كنا نختلسها، متخفّين تحت اللحاف، على ضوء المصباح اليدوي! كم كانت آنا كارنينا تعدو بسرعة بسرعة نحو فرونسكي في تلك الساعات من الليل! لقد كان ذانك الاثنان عاشقين وكان ذلك جميلاً بما فيه الكفاية، لكنهما كانا يعشقان بعضهما البعض رغم حظر القراءة، وذلك أجمل بكثير! كانا يعشقان بعضهما البعض رغم إرادة الأب والأم، ورغم وظيفة الرياضيات التي كان من الواجب إنهاؤها، ورغم "موضوع الفرنسي" الواجب تسليمه، ورغم الغرفة الواجب ترتيبها. لقد كانا يعشقان بعضهما البعض بدل أن يجلسا إلى مائدة الطعام، ويعشقان بعضهما البعض قبل تناول "الدوسير"، وكانا يفضّلان

بعضهما البعض على مباراة كرة القدم وعلى الذهاب لجمع الفطر... كان كل منهما قد اختار الآخر وكان يفضّله على كل شيء...

تبّاً! كم كان جميلاً ذلك الحب!

وكم كانت الرواية قصيرة.

٣

لنكن عادلين، فنحن لم نفكّر مباشرةً بأن نفرض عليه القراءة كما لو كانت واجباً. لم نفكّر في أول الأمر إلاّ بمتعته. وقد جعلتنا سنواته الأولى في حالة من النعيم، ومنحتنا دهشته المطلقة أمام هذه الحياة الجديدة نوعاً من العبقرية، فتحولنا، لأجله، إلى حكواتيين. منذ أن تفتّح على اللغة قصصنا عليه الحكايات، وكانت تلك قدرة لم نكن نعرف أننا نتحلّى بها. كانت متعته تلهمنا. وكانت سعادته تمنحنا النفس الطويل. لأجله ضاعفنا عدد الشخصيات وربط الحلقات بعضها ببعض وجعلنا الفخاخ أكثر ذكاءً... وخلقنا له عالماً، كما فعل تولكيان العجوز مع أحفاده. وعلى الحد الفاصل بين الليل والنهار، صرنا روائييه.

لو أننا لم نكن نمتلك تلك الموهبة، ولو أننا روينا له قصص الآخرين، وبشكل سيئ، باحثين عن كلماتنا، لافظين بشكل خاطئ أسماء العلم، خالطين بين حلقات القصة، جاعلين بداية قصة مع نهاية قصة أخرى، لما كان للأمر أهمية... وحتى لو أننا لم نحكِ له شيئاً أبداً، وحتى لو أننا اكتفينا بالقراءة بصوت عالٍ، فقد كنّا روائيّه هو بالذات، كنّا الحكواتي الوحيد الذي كان ينزلق بفضله، كل مساء، في بيجامة الحلم قبل أن يذوب في شراشف الليل. بل لنقل بالأحرى إننا كنّا بالنسبة إليه "الكتاب" بالإطلاق.

هل تتذكرون تلك الحميمية التي من الصعب مقارنتها مع شيء آخر؟

كم كنا نحب إخافته من أجل متعة تعزيته بعدها! وكم كان يطالبنا بذلك

الخوف! من وقتها لم يكن غرّاً، ومع ذلك فقد كان يرتجف. أي أنه كان قارئاً حقيقياً. هكذا كان الثنائي الذي كنّا نشكّله أيامها، هو القارئ، ما ألعنه! ونحن الكتاب، ما أكثر تواطؤه.

٤

خلاصة القول، لقد علّمناه كل شيء عن الكتاب، في ذلك الزمن الذي لم يكن يعرف فيه القراءة. لقد فتحنا عينيه على التنوع اللانهائي للأشياء الخيالية، وعرّفناه على فرح السفر العمودي، وزوّدناه بالقدرة على أن يكون في كل مكان، وخلّصناه من سلطة الزمان، وجعلناه يغطس في عزلة القارئ المسكونة بتعدّد عجيب... كانت القصص التي كنا نقرؤها له تعجّ بالأخوة والأخوات، والآباء والأمهات، وبالثنائيات المثالية، وبأسراب ملائكة حارسة، وفرق أصدقاء أوصياء على أحزانه، والذين كانوا في نضالهم ضد غيلانهم الشخصية يجدون، هم أيضاً، ملجأ في الضربات القلقة لقلبه. لقد أصبح بدوره، كقارئ، ملاكاً حارساً لهم. فبدونه لا وجود لعالمهم. بدونه كان عالمهم سيبقى حبيس سماكة عالمه. وهكذا اكتشف الفضيلة المتناقضة للقراءة، وهي فضيلة تجردنا عن العالم كي نجد له معنى.

لقد كان يعود صامتاً من هذه الأسفار. كان الصباح يأتي وكنا ننتقل إلى شيء آخر. في الحقيقة لم نكن نحاول معرفة ما الذي اكتسبه من سفره ذاك. أما هو فكان، بكل براءة، يحافظ على سرّه. كان ذلك، كما يقال، عالمه. وكانت علاقاته الخاصة مع بياض الثلج أو مع أيٍّ من "الأقزام السبعة" علاقات حميمية تتطلّب السرية. ما أكبرها من متعة للقارئ، متعة الصمت بعد القراءة!

نعم، لقد علّمناه كل ما يخصّ الكتاب.

وفتحنا بشكل رائع شهيته للقراءة.

لدرجة أنه – أتذكرون؟ – لدرجة أنه كان "يستعجل تعلّم القراءة"!

٥

كم كنا تربويين، عندما لم نكن نهتم للتربية!

٦

وها هو الآن، مراهق منزوٍ في غرفته، أمام كتاب لا يقرأه. رغبته في أن يكون في مكان آخر تجعل بينه وبين الصفحات المفتوحة حاجزاً قاتماً يغبّش السطور. إنه جالس أمام نافذته والباب مغلق من ورائه. صفحة ٤٨. إنه لا يجرؤ على عدّ الساعات التي أمضاها حتى وصل إلى هذه الصفحة الثامنة والأربعين. ويضمّ الكتاب بالتحديد أربعمائة وستاً وأربعين صفحة. يعني تقريباً خمسمائة صفحة. ٥٠٠ صفحة! لو كان هناك فقط بعض الحوارات. أتمزح! إنها صفحات محشوة حشواً بسطور مضغوطة بين هوامش ضيقة جداً، ومقاطع سوداء مكدّسة الواحد فوق الآخر، وهنا، وهناك، إحسانُ حوارٍ – شحطة، تبدو مثل واحة، تشير إلى أن شخصية تتكلم إلى أخرى. لكن الشخصية الأخرى لا تردّ عليها. يتبع ذلك كتلة من اثنتي عشرة صفحة! اثنتا عشرة صفحة من الحبر الأسود! يا لندرة الهواء! أفّ، ما أقلّ الهواء هنا! اللعنة، اللعنة، اللعنة! يشتم. إنه آسف، ولكنه يشتم. اللعنة اللعنة اللعنة على هذا الكتاب الغبي! الصفحة ثمانية وأربعون... ويا ليته كان يتذكر محتوى الصفحات السبع والأربعين الأولى! إنه لا يجرؤ حتى على طرح السؤال على نفسه – هذا السؤال الذي سيُطرح عليه حتماً. ها قد حلّ ليل الشتاء. ومن أعماق المنزل تصعد نحوه عناوين نشرة أخبار التلفزيون. ما زال عليه أن "يعكّ" نصف ساعة أخرى قبل أن يحين موعد العشاء. إن الكتاب شيء ثخين جداً، من الصعب الإتيان عليه. ويقال إنه يحترق بصعوبة! حتى النار لا يمكنها أن تتخلل صفحاته، بسبب قلة الأوكسجين. كل هذه الأفكار تراوده على هامش قراءته. وهامشه هو كبير جداً. إن الكتاب سميك، كثيف، غليظ، إنه لشيء ثقيل راضّ. صفحة أربعة

وثمانين أو مائة وأربعة وثمانين، ما الفرق؟ المشهد هو هو. إنه يستعيد حركة شفاه الأستاذ وهو يلفظ العنوان. ويسمع السؤال المشترك لزملاء الصف:

- ما عدد صفحاته؟

- ثلاث أو أربعمائة...

(كذّاب...)

- ومتى يجب أن ننهيه؟

ويثير إعلان الموعد القاتل جملةً من الاحتجاجات:

- خمسة عشر يوماً؟ أربعمائة صفحة (خمسمائة) للقراءة في خمسة عشر يوماً! لن نستطيع ذلك، أبداً، يا أستاذ!

لكن الأستاذ لا يفاوض.

الكتاب شيء راضّ وكتلة من الأبدية. إنه الملل مجسَّداً. إنه الكتاب. "الكتاب". وهو لا يطلق عليه اسماً آخر في مواضيع تعبيره: الكتاب، كتاب، الكتب، كتب.

"في كتابه **أفكار** يقول لنا باسكال إن..."

ورغم احتجاجات الأستاذ، باللون الأحمر، بأن هذه التسمية ليست دقيقة، وأنه يجب التكلم عن رواية، عن مقالة، عن مجموعة قصصية، عن ديوان شعر، وأن كلمة "كتاب" في حد ذاتها، كونها قادرة على الدلالة على كل شيء، فإنها ليست دقيقة إطلاقاً، فدليل الهاتف كتاب، ومثله القاموس ودليل السياحة وألبوم الطوابع وكتاب الحسابات[1]...

لكن لا حياة لمن تنادي، فكلمة كتاب ستفرض نفسها من جديد على قلمه في موضوع تعبيره المقبل:

" في كتابه **مدام بوفاري** يقول لنا فلوبير إن..."

والسبب هو أنّ، من وجهة نظر عزلته الحالية، أيّ كتاب كتاب. وكل كتاب له ثقل موسوعة معارف، من تلك الموسوعات المجلدة تجليداً فنياً مثلاً، كالتي كانت توضع تحتنا فيما مضى عندما كنا أطفالاً لنكون على مستوى طاولة

١ في الفرنسية نقول كتاب الحسابات بينما في العربية دفتر الحسابات. (م)

الطعام في البيت.

وثقل كل كتاب هو من تلك الأثقال التي تشدّك نحو الأسفل. لقد جلس خفيفاً على كرسيه، قبل قليل، بخفة من اتّخذ قراراً. لكنه، بعد عدة صفحات، شعر بنفسه وقد غزاه ذلك الثقل الاعتيادي، ثقل الكتاب، ثقل الملل، الثقل الذي لا يحتمل للجهد العقيم.

جفناه يعلنان له عن الغرق الوشيك.

لقد فتح الجرف الصخري للصفحة ٤٨ هوةً تحت مسار سفينة قراراته.

وهاهو الكتاب يشدّه نحو الأسفل.

فيغرقان معاً.

٧

أثناء ذلك كانت فكرة "التلفزيون المفسد" تحظى بقبول الموجودين أمام التلفاز في الطابق السفلي.

– الحماقة، قلة الأدب، عنف البرامج... شيء غير معقول! لم يعد بالإمكان تشغيل الجهاز دون رؤية...

– الرسوم المتحركة اليابانية... هل سبق ورأيتم أحد هذه الرسوم المتحركة اليابانية؟

– ليست المسألة مسألة برنامج فقط... إنه التلفزيون بذاته... السهولة... سلبية المشاهد...

– صحيح، نشغّل، نجلس...

– نقلّب المحطات...

– تشتّت...

– على الأقل يسمح ذلك بتجنّب الإعلانات.

– ولا حتى هذا. فقد طوروا نظاماً يجعل البرامج متزامنة، بحيث إن هربت من إعلان وقعت على إعلان آخر.

– وأحياناً يكون نفس الإعلان.

وهنا ساد الصمت بفضل هذا الاكتشاف المفاجئ لإحدى "نقاط الالتقاء" وقد أضاءها الإشعاع المُعمي لجلاء فكرنا، نحن البالغين.

وعندها يقول أحدهم بصوت منخفض:

– القراءة، طبعاً، شيء مختلفٌ، القراءة فعل!

– كلامك صحيح تماماً، القراءة فعل، "فعل القراءة"، صحيح تماماً.

– بينما التلفزيون، وحتى السينما إذا فكّرنا جيداً... يعطي لك الفيلم كل شيء، لا شيء تحصل عليه بمجهودك، كل شيء يقدَّم لك على طبق: الصورة، الصوت، الديكور، الموسيقا المرافقة في حال لم نكن قد فهمنا قصد المخرج...

– الباب الذي يصدر صريراً ليبيّن لك أنه جاءت اللحظة التي يجب أن تفزع فيها...

– عندما نقرأ يجب أن "نتخيّل" كل هذا... القراءة فعل خلق دائم.

الصمت من جديد.

(صمت بين "خالقين دائمين" هذه المرة)

ثم:

– ما يصدمني، أنا، هو عدد الساعات التي يقضيها الأولاد أمام التلفاز مقارنةً بساعات اللغة الفرنسية في المدرسة. لقد قرأت إحصاءات بهذا الخصوص.

– لا بدّ وأن النتائج فظيعة!

– واحد على ستة أو على سبعة. دون أن نحسب ساعات السينما. يقضي الطفل (طبعاً لا أتكلم عن طفلنا) بشكل وسطي – كحدّ أدنى – ساعتين كل يوم أمام جهاز التلفاز وثماني ساعات خلال عطلة نهاية الأسبوع. أي ما مجموعه ستٌّ وثلاثون ساعة، مقابل خمس ساعات لغة فرنسية في الأسبوع.

– طبعاً، لا يمكن للمدرسة أن تقاوم.

صمت للمرة الثالثة.

صمت الهوّات التي لا تُسبَر أغوارها.

٨

الخلاصة، كان بإمكاننا أن نقول أشياء كثيرة لقياس المسافة التي تفصله عن الكتاب.

ولقد قلناها "كلها" فعلاً.

مثلاً، إن التلفزيون ليس السبب الوحيد.

وإن العقود التي تفصل بين جيل أطفالنا وأيام شبابنا نحن كقراء تعادل قروناً من الزمن.

بحيث أنّ، إن كنا نشعر أننا، نفسياً، أقرب إلى أطفالنا من قرب آبائنا إلينا، فإننا، فكرياً، بقينا أقرب إلى آبائنا.

(عند هذه النقطة، جدل، نقاش، تحديد لمعاني المنصوبات "نفسياً" و"فكرياً". تعزيز بمنصوب آخر: عاطفياً)

– أقرب إليهم عاطفياً، إن كنت تفضّل.

– فعلياً؟

– لم أقل فعلياً، قلت عاطفياً.

– أي أننا، بكلام آخر، أقرب إلى أطفالنا عاطفياً، لكن أقرب إلى آبائنا فعلياً، أهذا ما أردت قوله؟

– هذه "حالة اجتماعية". تراكم "حالات اجتماعية" يمكن تلخيصها على الشكل التالي: أطفالنا هم أبناء وبنات عصرهم بينما نحن لم نكن سوى أطفال أهالينا.

–...؟

– طبعاً! عندما كنا مراهقين لم نكن زبائن مجتمعنا. أقول زبائن من وجهة

نظر تجارية وثقافية. كان المجتمع يومها مجتمع بالغين. ثياب مشتركة، أطباق طعام مشتركة، ثقافة مشتركة. كان الأخ الأصغر يرث ثياب الأخ الأكبر، كنا نأكل نفس الوجبات، في نفس الوقت، على نفس الطاولة، كنا نقوم بنفس النزهات يوم الأحد، وكان التلفزيون يربط جميع أفراد العائلة أمام نفس القناة (وكانت تلك القناة الواحدة أفضل من كل القنوات الموجودة اليوم...)، ومن ناحية القراءة، كان همّ الأهالي الوحيد هو في وضع بعض الكتب على الرفوف التي لا يمكن أن نطالها.

– أما الجيل الأسبق، جيل أجدادنا، فقد كان يحرّم بكل بساطة القراءة على الفتيات.

– صحيح! خاصةً قراءة الروايات، لأن "الخيال خراب البيت". وهذا ليس في صالح الزواج...

– بينما اليوم... يُعَدّ المراهقون زبائن حقيقيين في مجتمع يُلبسهم ويسلّيهم ويغذّيهم ويثقّفهم. في مجتمع تتكاثر فيه مطاعم الماكدو وماركات الوستون[1] والشوفنيون[2] وغيرها. كنّا نذهب إلى "البوم" والآن يذهبون إلى "العلبة"[3]، كنا نقرأ كتاباً، والآن "يطرقون كاسيتات"... كنا نحب التواصل على أنغام البيتلز، بينما ينغلقون على أنفسهم تحت سماعة "الوكمان"[4]... ونرى كذلك هذا الشيء الذي لا يصدّق: إذ أن أحياء بأكملها يحتلها المراهقون، ومساحات كبيرة في المدن يهيمون فيها على وجوههم.

هنا يأتي ذكر بوبور[5]...

بوبور...

بوبور – البربري...

---

١ ماركة أحذية. (م)

٢ ماركة ثياب. (م)

٣ البوم والعلبة كلمتان تعنيان الديسكوتيك (المرقص). (م)

٤ جهاز سماع فردي للموسيقا. (م)

٥ حي في باريس. (م)

بوبور الفانتاسما التي تنغل، بوبور التيهان، المخدرات، العنف... بوبور وفوهة الميترو... جُحر الهال[1]!

– حيث تتدفق جماعات أمّية أمام أكبر مكتبات فرنسا العامة!

صمت جديد... من أجمل أشكال الصمت: صمت "ملاك التناقض".

– هل يذهب أولادكم إلى بوبور؟

– نادراً. لحسن حظنا نسكن في الدائرة الخامسة عشرة.

صمت...

صمت...

– باختصار، هم لا يقرأون.

– لا.

– هناك أمور أخرى كثيرة تشدّ انتباههم.

– نعم.

---

١ حي آخر في باريس. (م)

٩

وإن لم يكن الذنب ذنب التلفزيون أو الجنون الاستهلاكي، فسيكون الحق على هجمة الإلكترونيات؛ وإن لم يكن الخطأ خطأ الألعاب الإلكترونية فسيكون خطأ المدرسة: تعلّم القراءة بشكل خاطئ، عدم ملائمة البرامج المدرسية، عدم كفاءة المدرسين، سوء حالة الصفوف، قلّة المكتبات...

وماذا أيضاً؟

آه! نعم، ميزانية وزارة التعليم... شيء بائس! والحصة الضئيلة جداً المخصصة للكتاب في هذه الميزانية الميكروسكوبية.

كيف يمكن لابني أو لابنتي، كيف يمكن لأطفالنا، للشباب، أن يقرأوا ضمن هذه الشروط؟

– بالمناسبة، الفرنسيون يقرأون أقل فأقل...

– صحيح.

١٠

وهكذا تمضي أحاديثنا. انتصار دائم للغة على قتامة الأشياء، سكوت مضيء يقول بأكثر مما يصمت. ونحن بحذرنا واستعلامنا لسنا بأغرار عصرنا. العالم بأسره يكمن في ما نقول - والعالم بأسره مضاء بما لا نقول. إننا واضحو الرؤية. بل إننا شغفون بوضوح الرؤية.

لماذا إذاً هذا الحزن المبهم المخيّم بعد هذا الحديث؟ لماذا صمت منتصف الليل هذا، في منزل أُسلِم لنفسه؟ المنظور الوحيد المتبقي هو جلي الصحون؟ بل... على بعد عدة مئات من الأمتار من هنا - وقد وقفت سيارتهم على إشارة حمراء - يخضع أصدقاؤنا لنفس الصمت الذي، بعد أن تنتهي نشوة وضوح الرؤية، يسيطر على الأزواج، عند عودتهم من السهرة، وهم في سيارتهم التي لا تتحرك. إنه إحساس يشبه شعور ما بعد السكر، أو نهاية التخدير، صعود بطيء نحو الوعي، عودة المرء إلى رشده، ومعه الشعور المبهم المؤلم بأننا لا نتعرف على أنفسنا فيما قلنا. "لم نُصِب". رغم أننا لم ننسَ شيئاً، هذا مؤكد، وكانت أدلتنا صحيحة - لكننا لم نُصِب. ما من شك في أنها كانت سهرة إضافية أضعناها في الممارسة المخدِّرة لوضوح الرؤية.

وهكذا نظن أننا نعود من السهرة لننغلق في بيوتنا ولكننا في الحقيقة ننغلق على ذواتنا.

ما قلناه منذ قليل، حول المائدة، كان بعكس ما تقوله أنفسنا. كنا نتكلم عن ضرورة القراءة، لكننا في الحقيقة كنا معه، هناك في الطابق العلوي، في غرفته، هو الذي لم يكن يقرأ. كنا نحصي الأسباب المقنعة التي يقدمها له عصرنا كي لا يحب القراءة، لكننا كنا نحاول اجتياز الكتاب - الجدار الذي يفصلنا عنه.

كنا نتكلم عن الكتاب بينما لم نكن نفكّر إلا فيه.

هو الذي زاد الطين بلّةً عندما نزل ليتعشى معنا في اللحظة الأخيرة، وقد أجلس إلى المائدة، دون كلمة اعتذار واحدة، ثقله كمراهق، إذ لم يقم بأي جهد للمشاركة في الحديث، ولينهض أخيراً دون أن يتناول "الدوسير" قائلاً:

– اعذروني، علي أن أقرأ!

١١

الحميمية المفقودة...

عندما نعاود التفكير، الآن وقد بدأ الأرقُ، في طقس القراءة الذي كنا نقوم به كل مساء على حافة سريره – في ساعة محددة وبحركات لا تتغير – فإننا نرى هذا الطقس أشبه شيء بالصلاة. تلك الهدنة المفاجئة بعد صخب النهار، تلك اللقيا خارج كلِ الحوادث المحتملة، ذلك الصمت القدسي قبل أولى كلمات القصة، وأخيراً صوتنا الذي لا يتغير، طقوس الحلقات المتسلسلة... نعم، لقد كانت القصة المقروءة كل مساء تحقق أجمل وظائف الصلاة، الوظيفة الأكثر تجرّداً، والأقل صخباً، والتي لا تعني إلاّ البشر: غفران الإساءة. لم يكن هناك أي اعتراف بالذنوب، أو أية محاولة للحصول على حظنا من الخلود، بل كانت فقط لحظة مشاركة قربانية فيما بيننا، لحظة غفران النص، لحظة عودة إلى الفردوس الوحيد الذي له قيمة: الحميمية.

لقد اكتشفنا، دون وعي منّا، إحدى أهم وظائف الحكاية، وبشكل أوسع إحدى أهم وظائف الفن بعامة، والتي تكمن في فرض هدنة على صراع البشر.

وهكذا كان الحب يكتسي ثوباً جديداً.

مجاناً، دون أي هدف نفعي.

١٢

مجاناً. هكذا كان يفهم الأمر. هدية. لحظة تختلف عن غيرها. بالرغم من كل شيء. كانت القصة المسائية تزيح عنه ثقل أعباء اليوم. وكقارب تخلص من الحبال التي تشدّه إلى الشاطئ كان ينطلق مع الريح، وقد تخفّف من كل أعبائه، وصوتنا كان تلك الريح.

ولم نكن نطلب منه ولا قرشاً واحداً ثمناً لهذا السفر، لم نكن نطلب منه أدنى مقابل. ولم يكن ذلك حتى مكافأة (آه! المكافآت... كما لو كان عليه أن يُظهر أنه يستحق المكافأة!) هنا، كان كل شيء يتم في عالم المجانية.

المجانية، عملة الفن الوحيدة.

١٣

ما الذي جرى بينه وبين تلك الحميمية، هو المتعثر الآن بكتاب – صخرة، بينما نحاول فهمه (أي نحاول أن نطمئن أنفسنا) وذلك بتجريم العصر وتلفزيونه – الذي قد نكون نسينا أن نطفئه؟

الحق على الرائي؟

القرن العشرون قرن "رؤية" بشكل مبالغ فيه؟ والقرن التاسع عشر وصفي بشكل مبالغ فيه؟ ولماذا لا يكون القرن الثامن عشر عقلانياً جداً، والسابع عشر كلاسيكياً جداً، والسادس عشر نهضوياً جداً، وبوشكين روسياً جداً، وسوفوكليس بائداً جداً؟ كما لو كانت العلاقات بين الإنسان والكتاب بحاجة للقرون حتى يبتعد أحدهما عن الآخر.

عدة سنوات تكفي.

بل عدة أسابيع.

لحظة سوء تفاهم تكفي.

في ذلك الوقت الذي كنا نتكلم فيه، ونحن بجانب سريره، عن فستان ليلى الأحمر في قصة "ليلى والذئب"، الوقت الذي كنا نعدّد فيه، بأدق التفاصيل، محتويات سلّتها، دون أن ننسى أعماق الغابة وأذنَي الجدة التي نبت عليهما الشعر فجأةً وبشكل غريب، وجارور الباب وسقّاطته، لا أذكر أنه كان يتبرّم من طول وصفنا لهذه الأشياء.

لم تمضِ قرون منذ ذلك الوقت. بل تلك اللحظات التي نسميها "الحياة"، والتي نعطيها هيئة أزلية بفرضنا عليها مبادئ غير ملموسة: "يجب أن تقرأ".

١٤

في هذا المجال، كما في مجالات أخرى، تبدّت الحياة من خلال تآكل متعتنا. سنة من القصص بجانب سريره، نعم. ولتكن سنتان. أو خلّها ثلاثة. أي ما يعادل ألفاً وخمساً وتسعين قصة، بمعدّل قصة في كل مساء. ١٠٩٥، إنه رقم لا يستهان به! ولم يكن هناك ربع الساعة المخصصة للقصة فقط... بل كان هناك أيضاً الوقت الذي يسبقه. ما الذي سأحكيه له اليوم؟ ماذا سأقرأ له؟

لقد عرفنا قلق غياب الإلهام.

في البداية ساعدنا هو، إذ أن دهشته لم تكن تطالبنا بقصة، بل كانت تطالبنا "بنفس" القصة.

- مرة أخرى، "عقلة الإصبع" مرة أخرى! لكن يا حبيبي هناك قصص أخرى غير "عقلة الإصبع". العمى! هناك أيضاً...

لا، "عقلة الإصبع" لا غير.

من كان يتوقع أنه سيأتي يوم نأسف فيه على الزمن الذي كان "عقلة الإصبع" وحده يؤنس غابة ابننا؟ لولا القليل لكنا لعنّا الساعة التي علّمناه فيها التنوع وكثرة الخيارات.

- لا، لقد سبق وقرأتَ لي هذه القصة!

ودون أن تصبح هوساً أصبحت مسألة الاختيار مشكلة صعبة الحل. وقد اتُّخذَت قرارات لم تدم طويلاً: الركض يوم السبت القادم إلى مكتبة مختصة والتقليب في أدب الأطفال. ولكن، صباح السبت، كنّا نؤجّل ذلك إلى السبت الذي يليه. الأمر الذي كان من جهته انتظاراً مقدّساً، دخل، من جهتنا، في عداد المشاغل البيتية. مشاغل صغرى، لكنها كانت تنضاف إلى المشاغل الأخرى

الأكبر حجماً. لكن المشاغل التي تتعلق بالمتعة يجب مراقبتها عن قرب، صغرى كانت أم كبرى.

لكننا لم نراقبها.

وعرفنا أيضاً لحظات تمرد.

– لماذا أنا؟ ولماذا لا تفعل ذلك أنت؟ آسف، هذا المساء، أنتِ من سيقرأ له قصته!

– تعرف تماماً أنني لا أملك أي خيال...

وكنا، كلما سنحت الفرصة، نلقي بهذه المهمة على عاتق ابن عم أو ابنة عمة أو حاضنة، أو إحدى الخالات في زيارة عابرة، على عاتق صوت جديد مازال يجد متعةً في تمرين القراءة هذا. لكن سرعان ما كانت المتعة تختفي أمام متطلباته كمستمع شديد التدقيق:

– لا، ليس هذا ما تجيب به الجدّة!

لقد تحايلنا أيضاً وبشكل مخجل. وقد حاولنا، أكثر من مرة، جعل الأهمية التي كان يعلّقها على القصة عملة مساومة.

– إن كررت ذلك، فلن نقرأ لك قصة هذا المساء!

وهو تهديد نادراً ما نفّذناه. الصراخ عليه أو حرمانه من "الدوسير" في نهاية الوجبة لم يكن ليعطي نتيجة. أما إرساله إلى السرير دون أن نقرأ له قصته، كان معناه إغراق يومه في ليل حالك السواد، وكان معناه أن نفارقه دون أن نكون قد استعدناه. عقوبة لا تُحتمل، لا بالنسبة له ولا بالنسبة لنا.

لكن هذا التهديد، قمنا بالتلفّظ به... آه! لم نتلفّظ به غالباً... كان تعبيراً غير مباشر عن التعب أحياناً، أو محاولة نصف مكشوفة لاستخدام ربع الساعة هذا لشيء آخر، لطارئ منزلي آخر، أو للحظة صمت بكل بساطة... أو لقراءة تخصنا نحن.

لقد كان الحكواتي فينا متعباً جاهزاً لتسليم الراية لشخص آخر.

١٥

جاءت المدرسة في وقتها.

وتكفّلت بالمستقبل.

قراءةً وكتابةً وحساباً...

في البداية، تحمّس للأمر حماساً حقيقياً.

أمر جميل أن تشكّل كل هذه الخطوط و"البكلات" والدوائر وهذه الجسور الصغيرة مجتمعة حروفاً! وأن تشكّل هذه الحروف معاً مقاطع، وهذه المقاطع المتجاورة كلمات، فإن ذلك كان مدهشاً جداً له. وأن تكون بعض هذه الكلمات معروفة تماماً بالنسبة إليه، فإن الأمر كان يسحره.

كلمة ماما، مثلاً، **ما ما**، دائرة يتبعها جسر صغير ثم عصا واقفة، ثم مرة أخرى دائرة فجسر فعصا واقفة أخرى، والنتيجة: **ماما**. كيف يمكن للمرء أن يشفى من روعة كهذه!

لنحاول تخيّل الأمر. استيقظ باكراً، وخرج برفقة أمّه، نعم برفقة أمه، تحت رذاذ خريفي (نعم، رذاذ خريفي، ونور كنور حوض مائي مهمل - يجب ألاّ نتوانى عن جعل المناخ درامياً)، وتوجّه نحو المدرسة متلفعّاً تماماً بدفء فراشه، ومازالت في فمه بقية طعم شراب الشوكولا، وهو يشدّ بقوة على اليد التي في مستوى أعلى من مستوى رأسه، يمشي مسرعاً مسرعاً، ويقوم بخطوتين في حين تقوم أمه بخطوة واحدة، وحقيبته تتأرجح خلف ظهره، ثم باب المدرسة والقبلة العجلى والباحة الإسمنتية بأشجار كستنائها الداكنة،

وأولى الديسيبلات[1]... وقد يكون بعدها انتحى زاويةً في الباحة أو دخل مباشرةً في المعمعة، ثم تواجد مع زملائه في مقاعدهم القزمة، صامتين وبلا حراك، بينما تحاول كل حركات الجسد أن تطوّع الحركة الوحيدة للقلم وهو يتنقل عبر الدهليز الواطئ السقف الذي يشكّله السطر! لسان ممدود وأصابع متشنّجة ومعصم مشدود... جسور صغيرة، عصيّ صغيرة، بكلات، دوائر وجسور صغيرة... إنه الآن على بعد مائة فرسخ من أمه، غارق في هذه العزلة الغريبة التي نسمّيها "الجهد"، محاط بكل هذه العزلات المادّة ألسنتها... وها قد بدأت الحروف الأولى تتجمع... أسطر "أ"... أسطر "م"... أسطر "ط" (ليست سهلة الطاء ببكلتها المستلقية وعصاها العمودية، لكنها تبقى سهلة عند الهاء بحلقتيها المزدوجتين أو الكاف وشكليها المختلفين). ومع ذلك يتم تجاوز الصعوبات خطوة خطوة... لدرجة أن الحروف وقد التصقت الواحدة بالأخرى بدأت تشكّل مقاطع... أسطر "ما"... أسطر "با"... والمقاطع بدورها بدأت تشكّل...

باختصار، ذات صباح، أو بعد ظهيرة، بينما مازالت الأذنان تطنّان بضجّة مطعم المدرسة، شهد، أمام عينيه، تفتّح الكلمة الصامت على الورقة البيضاء: ماما.

طبعاً كان قد رأى هذه الكلمة على اللوح وتعرّف عليها عدة مرات، لكن هنا، أمام عينيه، مكتوبة بيده هو...

وبصوت متردد في البداية، تلعثم بلفظ المقطعين، كلٌّ على حدة: "ما – ما".

وفجأةً:

– ماما!

صرخة الفرح هذه تشكّل احتفالاً بنهاية أعظم رحلة فكرية يمكن تصورها، رحلة شبيهة بأول خطوة على سطح القمر، رحلة يتم فيها العبور من الرسم الأكثر اعتباطيةً إلى أكثر المعاني عاطفيةً! دوائر وجسور صغيرة وعصيّ...

---

[1] الديسيبِل: وحدة لقياس الصوت. هنا، تعبير عن ضجة باحة المدرسة. (م)

و... ماما! صحيح أن الكلمة مكتوبة هنا، أمام ناظريه، لكنها تتفتح في داخله! وهي ليست مجموعة مقاطع، وليست كلمة، ولا مفهوماً، وليست أمّاً، بل هي أمّه هو بالذات، انتقال سحري، أكثر تعبيراً بكثير من كل الصور الفوتوغرافية، رغم أنها مجرد دوائر وجسور صغيرة... لكنها دوائر وجسور توقفت فجأةً - وإلى الأبد! - عن أن تكون هي ذاتها. كانت لا شيء وتحوّلت حضوراً، صوتاً، عطراً، يداً، حضناً، وكل هذه التفاصيل اللانهائية، تحوّلت إلى كلّ مطلقٍ حميمي جداً، وغريب بشكل مطلق عمّا هو مكتوب هنا، على سكّة الصفحة، بين جدران الصف...

إنه الحجر الفلسفي.

لا أكثر، ولا أقل.

لقد اكتشف لتوّه الحجر الفلسفي.

١٦

لا يمكن للمرء أن يشفى من هذا التحول، ولا أن يعود سالماً من رحلة كهذه. ومهما كانت "متعة القراءة" مكبوتة، فإنها تتحكم بكل قراءة. وبسبب من طبيعتها ذاتها فإن متعة القراءة – متعة الكيميائي هذه – لا تخشى على نفسها من الصور، حتى من الصور التلفزيونية بوابلها اليومي.

ورغم ذلك، حتى إذا فُقدت متعة القراءة (إذا كان، كما يقال عادةً، ابني أو ابنتي أو الشبان قد فقدوا حب القراءة)، فإنها لم تُفقد بعيداً.

بالكاد تاهت عن طريقها قليلاً.

ومن السهل العثور عليها.

لكن يجب أن نعرف في أي السبل نبحث عنها، ويجب، من أجل ذلك، أن نعرف كيف نعدّد بعض الحقائق التي لا علاقة لها بتأثيرات العصر الحديث على الشبان. بعض الحقائق التي لا تخصّ أحداً غيرنا... نحن الذين لا نني نؤكد أننا "نحب القراءة" ونزعم أننا نريد إشراك الآخرين في هذا الحب.

١٧

إذاً، يعود الطفل، وهو تحت تأثير الاندهاش، يعود من المدرسة فخوراً بنفسه، بل وسعيداً نوعاً ما. ويستعرض لطخات حبره وكأنها أوسمة، بينما تزيّنه بالفخر شبكات العناكب التي رسمها قلمه الرباعي الألوان.

سعادة مازالت قادرة على التعويض عن أولى آلام الحياة المدرسية: النهارات الطويلة عبثاً ومتطلبات المعلمة وصخب المطعم المدرسي وأولى اختلاجات القلب...

يصل ويفتح حقيبته ويستعرض مقدراته، ويعيد الكلمات المقدّسة من جديد (وإن لم تكن كلمة "ماما" فستكون كلمة "بابا" أو "سكاكر" أو "قِطّ" أو اسمه هو...).

في مركز المدينة يتحول إلى بديل لا يتعب عن اللوحات الإعلانية: ري-ن-و، س-ام-اري-ت-ي-ن، ف-ول-ف-ي-ك، ك-ام-ارغ...

وتهوي إليه الكلمات من السماء، وتتفجّر مقاطعها الملونة في فمه، ولا تقاوم أية ماركة منظف غسيل حبّه لفكّ الحرف:

- "يُنَظْ - ظِف ويُبَيـ - يِض أكثر". ما معنى "يُنظْ - ظِف ويُبَيـ - يِض أكثر"؟

ها قد حلّت ساعة الأسئلة الأساسية.

١٨

هل تركنا هذا الحماس يعمي أعيننا؟ هل اعتقدنا أنه يكفي للطفل أن يتمتع بالكلمات كي يتحكّم بالكتب؟ هل ظننا أن تعلّم القراءة شيء بديهي كالمشي أو اللغة – أي، بالمحصلة، ميزة أخرى من ميزات الجنس البشري؟ مهما يكن الأمر، فقد اخترنا هذه الفترة كي نوقف قراءات المساء.

المدرسة تعلّمه القراءة، وهو يفعل ذلك بشغف، وهذا منعطف جديد في حياته، اكتفاء ذاتي جديد، نسخة جديدة من خطوته الأولى في المشي، هذا ما قلناه لأنفسنا، بشكل مبهم، دون أن نصرح بذلك فعلاً بقدر ما كان الأمر يبدو لنا "طبيعياً"، مرحلة مثل غيرها على طريق تطور بيولوجي لا عقبات فيه.

لقد أصبح الآن "كبيراً"، ويستطيع القراءة بمفرده، والمشي بمفرده على طريق الإشارات اللغوية...

ويستطيع أن يعيد لنا، أخيراً!، ربع ساعة حريتنا.

ولم يقم كبرياؤه الحديث العهد بأي شيء لمعارضتنا. كان ينزلق في سريره، وكتاب بابار[١] مفتوح على ركبتيه، وتجعيدة تركيز فظيعة بين عينيه: لقد كان "يقرأ".

وكنا نغادر غرفته، وقد طمأنتنا صورته الإيمائية هذه، دون أن ندرك – أو دون أن نريد الاعتراف لأنفسنا – أن ما يتعلمه الطفل أولاً ليس الفعل بذاته بل "صورة الفعل" وأن هذا المظهر الخارجي، حتى لو كان يساعد الطفل على التعلم، إلا أنه موجّه أساساً إلى طمأنته وإرضائنا بنفس الوقت.

---

١ بابار، اسم شخصية قصص أطفال، وهو عبارة عن فيل، ويشكل اسمه دوماً جزءاً من العنوان. (هناك أيضاً رسوم متحركة تحمل نفس الاسم). (م)

١٩

ومع ذلك فإننا لم نتحول إلى آباء لا يستحقّون هذا الاسم، إذ أننا لم نهمله في المدرسة. بالعكس فقد تابعنا عن قرب تقدمه فيها. وقد عرفت فينا معلمته آباء مهتمين وحاضرين في كل الاجتماعات و"منفتحين للحوار".

لقد قمنا بمساعدة هذا المتعلم على كتابة وظائفه. وعندما ظهرت لديه أولى علامات التعب فيما يخص القراءة، ألححنا وبشجاعة كي يقرأ، بصوتٍ عالٍ، صفحته اليومية ويفهم فحواها.

ولم يكن الأمر دائماً سهلاً.

آلام مخاض مع كل مقطع.

معنى الكلمة يضيع في الجهد المبذول لتركيبها.

معنى الجملة يتشظى في عدد الكلمات المكوِّنة لها.

العودة إلى الوراء.

والبدء من جديد.

بدون أن نتعب.

– ها؟ ما هذا الذي قرأته هنا؟ ما "معناه"؟

وكان ذلك يتم في أسوأ لحظات النهار. إما عند عودته من المدرسة، أو لدى عودتنا من العمل. إما وهو في قمة تعبه، أو ونحن في الدرك الأسفل من قوانا.

– إنك لا تبذل أدنى جهد!

نرفزة، صياح، تخلٍ عن الأمر بكل بساطة، أبواب تصفق، أو بالعكس عناد:

– سنكرر كل شيء، سنكرر كل شيء من البداية!

وكان يكرر، من البداية، بينما يشوّه اضطراب شفتيه كل كلمة.

- توقّف عن التمثيل!

ولم يكن وجعنا ذاك محاولة لخداع أنفسنا. بل كان وجعاً حقيقياً، لا نتحكم به، وجع يعكس بالفعل عدم قدرتنا على التحكم بكل شيء. وقد كان هذا الألم يتغذى من نبع قلقنا أكثر مما يتغذى من مظاهر قلة صبرنا.

فقد كنا فعلاً قلقين.

وقد دفعنا هذا القلق بشكل مبكر إلى مقارنته مع أطفال من عمره.

وإلى الاستفسار من أصدقائنا الفلانيين عن ابنتهم، التي، بالعكس، كانت "ماشية تماماً" في المدرسة وتلتهم الكتب التهاماً.

أهو مصاب بالصمم؟ أو ربما بمرض عسر القراءة؟ هل سيقوم بـ "رفض المدرسة"، بحيث يصبح عنده تراجع لا يمكن إصلاحه؟

استشارات مختلفة: فحص حاسة السمع كان سليماً تماماً، وتشخيص مطمئن تماماً من ناحية الأطباء المختصين بالنطق، وطمأنة تامة من جهة المختصين بعلم النفس...

ماذا إذاً؟

أهو كسول؟

بكل بساطة كسول؟

لا، لقد كان يتقدم وفق إيقاعه هو، هذا كل شيء، وهو ليس بالضرورة إيقاع طفل آخر، ولا الإيقاع الواحد لحياة ما، إنه إيقاعه كقارئ مبتدئ، وهو إيقاع يعرف أحياناً تسارعات وتراجعات فجائية، وفترات نهم وكذلك فترات قيلولة هضمية، ويعرف أيضاً عطشه للتقدم وخوفه من تخييب الآمال فيه...

لكننا نحن الآخرين، "التربويين"، مُقْرِضون مستعجلون على تحصيل الفائدة. بما أننا نملك "العلم"، فإننا نقرضه مقابل فائدة. يجب أن يكون هناك مردود، وبسرعة! وإلا فإننا نبدأ بالشك في أنفسنا نحن.

٢٠

إن كان، كما نقول عادةً، ابني أو ابنتي أو الشبان لا يحبون القراءة (وفعل أحب هنا دقيق تماماً لأن المسألة هي فعلاً مسألة جرح حب)، لا يجب أن نضع ذلك على عاتق التلفاز أو الحداثة أو المدرسة. يمكن أن نتهم كل هؤلاء إذا أردنا لكن بعد أن نطرح على أنفسنا السؤال الأساسي التالي: ما الذي فعلناه بالقارئ "المثالي" الذي كانه في ذلك الزمن الذي كنا نلعب فيه بأنفسنا دور الحكواتي ودور الكتاب بنفس الوقت؟

ما أعظمها من خيانة!

كنا نشكل، نحن والقصة وهو، ثالوثاً مقدساً تتصالح أقانيمه كل مساء؛ وها هو الآن وحيد أمام كتاب عدائي.

كانت خفة جملنا تحرّره من كل ثقل؛ بينما التزاحم المبهم للحروف الآن يخنق حتى محاولاته في أن يحلم.

كنّا قد علّمناه الرحيل عمودياً؛ وها هو يسحقه خدر المجهود.

زوّدناه بخاصية التواجد في كل مكان؛ وها هو سجين في غرفته، في صفه، في كتابه، في سطر، في كلمة.

أين تختبئ إذاً كل تلك الشخصيات السحرية، أولئك الأخوة والأخوات والملوك والملكات والأبطال، التي طالما لاحقها الأشرار، والتي كانت تخفّف عنه عناء الوجود بدعوتها له لنجدتها؟ أمن الممكن أن تكون لها علاقة بآثار الحبر هذه، المسحوقة بشدة والتي نسميها "حروف"؟ أمن الممكن أن يكون أنصاف الآلهة هؤلاء قد نُتِّفوا إلى هذا الحدّ وقُزِّموا إلى درجة أن يصبحوا مجرد حروف مطبعية؟ وأن يتحول الكتاب إلى مجرد "شيء"؟ إنه تحوّل مضحك! الوجه

المكشوف للسحر. هو وأبطاله وقد خنقتهم معاً السماكة الصامتة للكتاب!

وليس بالتحول البسيط كذلك هذا الإصرار الشديد من قبل الأب والأم اللذين يريدان، كالمعلمة، دفعه إلى إفلات حلمه الذي كان يتمسك به.

– قل إذاً، ما الذي حصل للأمير، آ؟ إنني أنتظر الجواب!

هذان الأبوان اللذان لم يكونا يهتمان أبداً، أبداً، عندما كانا يقرأان له كتاباً، بمعرفة إن كان قد "فهم" جيداً أن الأميرة كانت نائمة في الغابة لأن المغزل وخزها، وأن "بياض الثلج" كانت نائمة لأنها أكلت من التفاحة. (في المرات الأولى، في الحقيقة، لم يكن قد "فهم" فعلاً. فقد كان هناك قدر كبير من الأعاجيب في هذه القصص، وقدر كبيرٍ من الكلمات الجميلة والإثارة العاطفية! كان يركز كل انتباهه في انتظار مقطعه المفضل، والذي كان يردده في داخله غيباً في اللحظة المناسبة. ثم كانت تأتي المقاطع الأخرى، الأكثر غموضاً، والتي كانت تنحبك فيها كل الأسرار، لكنه، شيئاً فشيئاً، كان يفهم كل شيء، كل شيء تماماً، وكان يعرف تماماً أن الأميرة الجميلة كانت نائمة بسبب المغزل و"بياض الثلج" بسبب التفاحة...).

– **أكرر سؤالي: ما الذي حدث لهذا الأمير عندما طرده أبوه من القصر؟**

ثم نلحّ ونلحّ. يا إلهي، من غير المعقول أن هذا الصبي لم يفهم فحوى هذه الأسطر الخمسة عشر! ليس الأمر بهذه الصعوبة، خمسة عشر سطراً!

كنا حكواتييه وصرنا محاسبيه.

– بما أن الأمر كذلك، فلن تشاهد التلفاز اليوم!

إي نعم...

نعم... التلفاز ترقّى وأصبح مكافأة... وبالنتيجة خُسفت القراءة لتصبح وكأنها عمل شاق... نحن من عثر على هذه اللقية...

٢١

"القراءة مصيبة الطفولة والشيء الوحيد تقريباً الذي نعرف أن نشغل الطفل فيه. (...) والطفل لا يحاول إتقان الأداة التي نعذّبه بها؛ لكن ضعوا هذه الأداة في خدمة هواياته وسترون كيف سيبذل مجهوداً كبيراً رغماً عنكم.

نهتم كثيراً بالبحث عن أفضل الطرق لتعلّم القراءة، ونخترع مكاتب، وخرائط، ونحوّل غرفة الطفل إلى ورشة طباعة (...) كم هذا مثير للشفقة! إذ أن هناك وسيلة أنجع من كل هذا، وغالباً ما ننساها، وهي الرغبة في التعلّم. امنحوا الطفل هذه الرغبة وتخلّوا آنذاك عن مكاتبكم (...)؛ مهما كان منهج التعليم المتبع عندها فسوف يناسبه.

الاهتمام الحاضر، المباشر؛ هذا هو المحرك الكبير والوحيد القادر على دفعه بعيداً وبشكل مؤكد.

(...)

وأضيف هذه العبارة على شكل حكمة مهمة: عادةً نحصل بشكل مؤكد أكثر، وبسرعة أكبر، على ما نريد إن لم نكن مستعجلين في الحصول عليه". [١]

طيب، طيب، لا يحق لروسو أن يدلي برأيه هنا، وهو الذي ألقى بأطفاله مع مياه جرن الحمام! (يا للأزمة الغبية...).

لكن مع ذلك فإن ما يقوله هنا يأتي في محله ليذكّرنا بأن هوس البالغين بـ"معرفة القراءة" ليس حديث العهد... ولا غباء الاختراعات التربوية التي تعارض الرغبة في التعلم.

---

١ هذا الاستشهاد استقاه الكاتب من كتاب **الاعترافات** لجان جاك روسو. (م)

ثم (آه إني أسمع قهقهة ملاك التناقض) قد يحدث أن يمتلك أب سيئ مبادئ تعليمية ممتازة وأن يمتلك تربوي جيد مبادئ سيئة. هكذا هي الأمور.

لكن، إن كان روسّو مثالاً غير مقبول، فما قولكم ببول فاليري - الذي لم يتخاصم مع جميعة رعاية الطفولة - عندما قام، خلال خطاب من أكثر الخطابات تربويةً وأكثرها احتراماً للمؤسسة المدرسية (خطاب ألقاه أمام فتيات "وسام الشرف" الرصين جداً)، بالانتقال فجأةً إلى خلاصة ما يمكن أن يقال عن الحب، حب الكتاب:

> أيتها الآنسات، لا يبدأ الأدب بسحرنا من خلال المفردات والنحو. تذكّرن فقط كيف تدخل الآداب في حياتنا. ففي أولى سني عمرنا، ما إن تتوقف الأغاني التي تجعل الرضيع يبتسم وينام حتى يبدأ عصر الحكايات التي يشربها الطفل كما كان يشرب حليبه. فيطلب البقية وتكرار الأعاجيب؛ إنه جمهور ممتاز وبدون رحمة. ولا يعلم إلا الله كم من الساعات أمضيت وأنا أسقي سحرة ووحوشاً وقراصنة وجنيات لأطفال صغار كانوا يصرخون "أيضاً!" لأبيهم الذي هدّه التعب.

٢٢

"إنه جمهور ممتاز وبدون رحمة".

إنه، منذ البداية، قارئ جيد، ويمكن أن يبقى كذلك لو أن الكبار المحيطين به يقومون بتغذية حماسه بدلاً من أن يحاولوا أن يبرهنوا لأنفسهم عن مهاراتهم، ولو أنهم يحرّضون رغبته في التعلم قبل أن يطلبوا منه أن "يُسمّع" لهم، لو أنهم يرافقونه في جهده بدلاً من الاكتفاء بانتظاره عند المنعطف، لو أنهم يقبلون بالتضحية بسهرات بدل أن يحاولوا كسب الوقت، لو أنهم يجعلون الحاضر يمور بالحياة دون التهديد بالمستقبل، لو أنهم يرفضون أن يحوّلوا ما كان متعة إلى أشغال شاقة، ولو أنهم ينمّون هذه المتعة حتى تصبح واجباً، وأن يؤسّسوا هذا الواجب على مجانية التعلم الثقافي، ويستعيدوا بذاتهم متعة هذه المجانية.

٢٣

وها هي هذه المتعة قريبة جداً، ومن السهل استعادتها. يكفي ألاّ نترك السنين تمر. يكفي أن ننتظر هبوط الظلام، وأن نفتح من جديد باب غرفته، ونجلس قرب رأسه ونستعيد قراءتنا المشتركة.

وأن نقرأ
بصوت عالٍ
وبدون مقابلٍ
قصصه المفضّلة.

ما سيحصل حينئذ يستحق الوصف. ففي البداية لن يصدّق أذنيه، فالقط المحروق يخشى الحكايات![1] ويُصاب بالذعر قليلاً وهو تحت لحافه الذي يصل إلى ذقنه، إذ أنه ينتظر الفخ المنصوب له:

– طيب، ما معنى ما قرأت لك؟ هل فهمت؟

لكننا لن نطرح عليه كل هذه الأسئلة، ولا أية أسئلة أخرى. سنكتفي بالقراءة. مجاناً. وسيرتخي قليلاً قليلاً (ونحن أيضاً)، وسيستعيد ببطء هذا التركيز الحالم الذي كان يبدو على وجهه مساءً. وسيتعرف علينا، أخيراً، من صوتنا الذي عاد إلى طبيعته الأولى.

من المحتمل، تحت تأثير الصدمة، أن ينام منذ الدقائق الأولى... إنه الارتياح.

وفي مساء اليوم التالي، نفس اللقاء. ومن المحتمل أن تكون نفس القراءة.

١ يحرّف الكاتب هنا المثل الفرنسي القائل: "القط المحروق يخاف الماء الفاتر". (م)

نعم، من المحتمل جداً أن يطالبنا بأن نقرأ له القصة ذاتها، فقط ليتأكد من أنه لم يحلم بالأمس، وأن يطرح علينا الأسئلة ذاتها، وفي نفس الأمكنة، فقط ليسعد بسماعنا ونحن نعطيه الأجوبة ذاتها. فالتكرار طمأنينة. إنه دليل على الحميمية. بل إنه نفَسُ الحميمية. وهو بحاجة لاستعادة هذا النفَس:

- أيضاً!

"أيضاً، أيضاً..." تعني، باختصار، "لا بد وأننا، أنا وأنت، نحب بعضنا حتى نرضى بهذه القصة الوحيدة، والتي تتكرر حتى اللانهاية!". إعادة القراءة ليست تكراراً، إنها البرهنة المتجددة دوماً عن حبٍّ لا يملّ.

إذن، فلنعد القراءة.

يومه صار وراءه. ونحن هنا، أخيراً معاً، أخيراً في عالم آخر. لقد استعاد سرّ الثالوث: نحن والنص وهو (بأي ترتيب شئتم لأن السعادة تأتي من عدم إمكانية ترتيب عناصر هذه اللُحمة!).

إلى أن يمنح لنفسه المتعة النهائية للقارئ، وهي أن يملّ من النص ويطلب منا أن ننتقل لغيره.

كم سهرة أضعنا بهذا الشكل لفتح أبواب الخيال؟ عدة سهرات فقط، لا أكثر من ذلك. ولنقل عدة سهرات أخرى. لكن الأمر يستحق العناء. فها هو من جديد مفتوح على كل القصص الممكنة.

وبنفس الوقت تتابع المدرسة تعليمها. وإن كان مازال لا يُظهر تقدماً في تأتأة قراءاته المدرسية، فعلينا ألاّ نخاف، إذ أن الزمن أصبح معنا منذ تخلينا عن فكرة إكسابه الوقت.

وسيظهر التقدم ("التقدم" الشهير) في مكان آخر، وفي لحظة لم نكن ننتظرها.

وذات مساء قادم، سنسمعه يهتف لأننا تجاوزنا سطراً:

- لقد قفزت عن سطر!

- عفواً؟

- نسيت سطراً، لقد تجاوزت سطراً!

- لا، أؤكد لك...

- هات!

وسيأخذ الكتاب من بين يدينا ويشير، بإصبع منتصر، إلى السطر الذي تجاوزناه. "وسيقرأه بصوت عالٍ".

وستكون تلك الإشارة الأولى.

وستأتي الإشارات الأخرى لاحقاً. وسيعتاد على مقاطعة قراءتنا:

- كيف نكتب ذلك؟

- ماذا؟

- ما قبل التاريخ.

- م، ا - ق، ب، ل...

- أرني!

يجب ألاّ نغتر. فهذا الفضول الفجائي آتٍ طبعاً من موهبته الحديثة العهد ككيميائي، لكنه آتٍ قبل كل شيء من رغبته في إطالة السهرة.

(فلنُطِل، فلنطل...)

وذات مساء آخر، سيقرر:

- سأقرأ معك!

وسيمدّ رأسه من فوق كتفنا ويتابع بعينيه لبعض الوقت الأسطر التي نقرأها له.

أو أنه سيقول:

- أنا من يبدأ!

وسينطلق هاجماً على المقطع الأول.

وستكون قراءته صعبة، ليكن! وبسرعة لاهثة، ليكن! إذ أنه بالرغم من ذلك سيكون قد استعاد ثقته، فهو يقرأ بدون خوف. وسيقرأ بشكل أفضل فأفضل، وبرغبة تتنامى شيئاً فشيئاً.

- هذا المساء، أنا من سيقرأ!

وسيقرأ نفس المقطع طبعاً - إنها فضيلة التكرار - ثم آخر، "مقطعه المفضّل"، ثم نصوصاً بكاملها. نصوص يعرفها تقريباً عن ظهر قلب، ويخمّنها كونه يعرفها أكثر مما يقرأها، ولكنه رغم ذلك يقرأها من أجل متعة تخمينها.

ولن يتأخر اليوم الذي سنفاجئه فيه، في ساعة ما من ساعات النهار، وقد وضع على ركبتيه **حكايا القط الجائم**، وبدأ يرسم مع دلفين وماري[1] حيوانات المزرعة.

منذ عدة أشهر سُرّ كثيراً بالتعرّف على كلمة "ماما"؛ والآن تنبثق قصة بأكملها خلل مطر الكلمات. لقد أصبح بطل قراءاته، ذاك البطل الذي فوّضه الكاتب، منذ الأزل، كي يأتي ويفكّ أسر الشخصيات الحبيسة في نسيج النص - لكي تحرره بدورها من حوادث النهار.

ها قد بلغنا المراد.

وإن كنا نريد أن نمنحه متعة أخيرة، يكفي أن ننام وهو يقرأ لنا.

---

١ شخصيات في الكتاب المذكور. (م)

٢٤

من المستحيل أبداً أن نُفهِم ولداً غارقاً مساءً في خضم قصة آسرة، أن نُفهمه بحجج تتعلق به وحده بأن عليه أن يقطع قراءته ويذهب إلى النوم.

كافكا هو الذي يقول هذا الكلام، فرانز الصغير، الذي كان أبوه يفضّل لو أنه قضى ليالي حياته بأكملها في الحسابات.

الفصل الثاني

يجب أن تقرأ
(عقيدة لا تُناقش)

٢٥

تبقى مشكلة الكبير، الجالس الآن في غرفته، في الطابق العلوي.

هو أيضاً بحاجة لأن يتصالح مع "الكتب"!

المنزل فارغ، الأبوان نائمان، والتلفاز مطفأ، وهاهو إذاً، بمفرده... أمام الصفحة ٤٨.

وهذا "الملخّص" الذي عليه أن يقدّمه غداً...

حساب عقلي بسيط:

٤٤٦ - ٤٨ = ٣٩٨.

ثلاثمائة وثمان وتسعون صفحة يجب قراءتها خلال الليل!

بشجاعة يعود إلى قراءته. صفحة تدفع الأخرى. كلمات "الكتاب" ترقص في سماعتَي جهاز التسجيل الموسيقي الموضوعة على أذنيه. بدون فرح. للكلمات أقدام ثقيلة كالرصاص. تتساقط الواحدة تلو الأخرى كالأحصنة التي نطلق عليها طلقة الرحمة. حتى عزف الإيقاع الصاخب عجز عن إعادة الحياة إليها (رغم أن عازف الإيقاع هو كِندال الشهير). يتابع قراءته دون أن يلتفت خلفه إلى جثث الكلمات. لقد أسلَمت الكلمات معانيها، فلترقد حروفها في سلام. هذا الموت الجماعي لا يخيفه. وها هو يقرأ قُدماً كما نمشي. الواجب يدفعه إلى ذلك. الصفحة ٦٢، الصفحة ٦٣.

يقرأ.

ماذا يقرأ؟

قصة إيمّا بوفاري.

قصة فتاة قرأت الكثير من الكتب:

كانت قد قرأت رواية بول وفيرجيني وحلمت بالكوخ المصنوع من القصب، وبالزنجي دومانغو، وبالكلب "مخلص"، وحلمت خاصةً بالصداقة العذبة لأخ صغير يصعد إلى أشجار أعلى من أبراج الكنائس ليقطف لها فواكه حمراء، أو يركض عاري القدمين على الرمال ليحضر لها عش عصفور.

من الأفضل الاتصال بتييري أو بستيفاني كي يعطياه ملخّصهما غداً صباحاً، وسينقله بسرعة قبل بداية الدرس، و"لا عين رأت ولا أذن سمعت". إنهما يدينان له بذلك.

"عندما صار عمرها ثلاث عشرة سنة، أخذها أبوها معه إلى المدينة ليضعها في الدير. باتا يومها في نزل في حي سان جيرفي وكانت رسوم الصحون التي قُدِّمت لهما على العشاء تمثّل قصة الآنسة دو لافالير. وكانت الشروحات المرافقة للرسوم - والتي جرحتها السكاكين في مواضع عدة - تمتدح الدين ورهافة الأحاسيس وأبّهة البلاط الملكي".

عبارة: "كانت رسوم الصحون التي قُدِّمت لهما على العشاء..." جعلته بالرغم عنه يبتسم ابتسامةً متعَبة: "أعطيت لهما صحون فارغة ليأكلاها؟ أُطعِما قصة هذه الآنسة دولافالير؟".

هه! إنه يسخر؟! يعتقد نفسه على هامش القراءة. خطأ، إذ أن سخريته في محلها تماماً. لأن مصائبهما المتناظرة (هو وإيما بوفاري) تعود إلى الأمر التالي: إيمّا تنظر إلى صحنها ككتاب، بينما هو ينظر إلى كتابه كصحن.

٢٦

"في هذا الوقت، في الثانوية" (كما كانت تقول المجلات المصورة البلجيكية لجيلهم) كان الوالدان يديران حديثاً مع أستاذ اللغة الفرنسية:

– يا أستاذ، ابني... ابنتي... والكتب...

فهم أستاذ الفرنسية المغزى: الطالب المقصود "لا يحب القراءة".

– ومما يزيد الأمر إدهاشاً أنه، عندما كان طفلاً، كان يقرأ كثيراً... حتى أنه كان يلتهم الكتب التهاماً، أليس كذلك يا عزيزتي، ألا يسعنا القول إنه كان يلتهم الكتب التهاماً؟

وتوافق عزيزته: كان يلتهمها.

– لكننا منعناه من مشاهدة التلفاز!

(هذه حالة أخرى: المنع المطلق من مشاهدة التلفاز. حل المشكلة برفض الكلام عنها. وهي بدعة أخرى من بدع التربويين!).

– صحيح، التلفزيون ممنوع خلال السنة الدراسية. إنه مبدأ لم نتساهل فيه أبداً!

لا تلفاز! لكن بيانو من الساعة الخامسة إلى السادسة، غيتار من السادسة إلى السابعة، رقص يوم الأربعاء، جيدو، تنس، مبارزة، يوم السبت، تزلج على الثلج منذ أول هطولاته، دورة قوارب شراعية منذ بدايات تحسن الطقس، دروس في صناعة الفخار في الأيام الماطرة، رحلة إلى إنكلترا، جمباز إيقاعي...

وهكذا تُمحى أقل فرصة معطاة لأصغر ربع ساعة يمكن للمرء أن يجلس فيها بينه وبين نفسه.

اهجموا على الحلم!

العنوا الملل!
الملل الجميل...
الملل الطويل...
الذي يجعل كل إبداع ممكناً...
- نحاول أن لا نتركه يملّ أبداً.
(يا له من مسكين...)
- إننا... كيف يمكن أن أعبّر عن ذلك؟... إننا متيقظون جيداً إلى ضرورة إعطائه تعليماً كاملاً لا ينقصه شيء...
- ناجعاً، خاصةً، يا عزيزتي، إعطاؤه برأيي تعليماً ناجعاً.
- لو لم يكن الأمر كذلك لما كنّا هنا الآن.
- لحسن الحظ، علاماته بالرياضيات ليست بالسيئة...
- أما بالفرنسية، فطبعاً...
كم هو تعيس وحزين ومؤثر هذا الجهد الذي نفرضه على كرامتنا عندما نذهب هكذا، كبرجوازيي كالي[1]، حاملين مفاتيح فشلنا بأيدينا الممدودة، لمقابلة أستاذ اللغة الفرنسية. والأستاذ يصغي ويقول: نعم... نعم، وهو يتمنى أن يكون مخطئاً ولو لمرة واحدة في حياته كمدرّس، أن يكون مخطئاً ولو قليلاً جداً... لكن لا:
- برأيك هل يمكن أن يكون إخفاقه في اللغة الفرنسية سبباً لإعادة السنة؟

---

١ إشارة إلى حكاية تاريخية خاصة بمدينة كالي شمال فرنسا، حكاية تعود إلى القرن الرابع عشر خلال ما سمي "حرب المائة عام" بين إنكلترا وفرنسا. تنص الحكاية على أن ملك إنكلترا إدوار الثالث، الذي حاص المدينة لمدة ١١ شهراً، قبل أن يمنح الأمان لسكان المدينة التي بدأت تعيش مجاعة كبيرة، مقابل أن تُسلِّم له المدينة ستة من برجوازييها ليقتلهم. جاءه البرجوازيون الستة والحبل في أعناقهم وهم يحملون مفاتيح المدينة وقصرها ليقدموها له. تقول النصوص إن ذلك لم يمنع الناس من الفرار من المدينة بعد أن دخلها الجنود الإنكليز، وأن الملك أعفى بطلب من زوجته عن هؤلاء الرجال الستة.
قام النحات الفرنسي الشهير أوغست رودان بعمل تماثيل لهؤلاء البرجوازيين بطلب من مدينة كالي، في نهاية القرن التاسع عشر. (م)

٢٧

هكذا تمضي حيواتنا: هو يقضيها في "الاتّجار" بملخّصات القراءة، ونحن في مواجهة شبح الرسوب، وأستاذ الفرنسية في شعوره بأن مادته مهانة... وليحيا الكتاب!

٢٨

المدرّس يتحول بسرعة إلى مدرّس عجوز، ليس لأن هذه المهنة تستهلك المرء أكثر من غيرها، لا... بل بسبب سماع كمّ هائل من الآباء يحدّثونه عن كمّ هائل من الأولاد - وعن أنفسهم بنفس الوقت - وسماع عدد كبير من قصص حياة، وطلاق، ومشاكل عائلية: أمراض الطفولة، مراهقين من الصعب السيطرة عليهم، بنات عزيزات لكن عاطفتهن تفلت من يديك، رسوبات كثيرة بُكي عليها، ونجاحات كثيرة مُشهَرة، وآراء كثيرة حول مواضيع لا حصر لها، وخاصةً حول ضرورة القراءة، الضرورة المطلقة للقراءة والتي تحظى بإجماع الكل.

يا للعقيدة الجامدة!

هناك الذين لم يقرأوا أبداً ويخجلون من ذلك، والذين ليس لديهم الوقت للقراءة ويأسفون على ذلك، والذين لا يقرأون روايات بل كتباً "مفيدة"، ومقالات وكتب تقنية وسير ذاتية وكتب تاريخ، وهناك الذين يقرأون كل شيء وأي شيء، والذين "يلتهمون" وتلمع عيونهم، وهناك الذين لا يقرأون إلا الكلاسيكيين "لأنه ليس هناك ناقد أفضل من غربال الزمان"، هناك من يقضون فترة نضجهم في "إعادة القراءة"، والذين قرأوا آخر كتاب لفلان وآخر كتاب لفلان الثاني لأنه يجب، يا أستاذ، أن نبقى على تواصل مع المستجدات...

لكنهم جمعياً، جميعاً، يفعلون ذلك باسم ضرورة القراءة.

يا للعقيدة الجامدة!

وحتى ذلك الذي لم يعد يقرأ اليوم لكنه يؤكّد أنه لا يقرأ لأنه قرأ كثيراً في السابق. لكن الآن دراسته صارت خلفه، وقد "نجح" في حياته، بفضل

مجهوده طبعاً (فهو من هؤلاء الذين "لا يدينون بشيء لأحد")، ومع ذلك فهو يعترف عن طيب خاطر بأن هذه الكتب، التي لم يعد بحاجة إليها، ساعدته كثيراً... بل كانت "ضرورية، نعم، ض..ر..و..ر..ي..ة!".

– ويجب أن يضع "هذا الولد" ذلك في رأسه!

يا للعقيدة الجامدة!

٢٩

في الحقيقة، "الولد" وضع "ذلك" في رأسه. فهو لا يضع هذه العقيدة ولو للحظة واحدة موضع تساؤل. هذا على الأقل ما يبدو واضحاً في موضوع إنشائه:

> موضوع: ما رأيكم بهذه الوصية التي يقدّمها غوستاف فلوبير لصديقته لويز كولي: "اقرئي لتحيي!"؟

الولد يتفق مع فلوبير، الولد وزملاؤه وزميلاته كلهم متفقون مع فلوبير: "فلوبير كان على حق!" إجماع خمسة وثلاثين موضوعاً: القراءة واجبة، يجب أن نقرأ لنحيا، وحتى أن هذا الأمر (الضرورة المطلقة للقراءة) هو ما يميّزنا عن الحيوانات، عن البربر، عن الشخص الغشيم الجاهل، عن المتعصّب الهستيري، عن الديكتاتور المتحكّم، عن المادي النهم. يجب أن نقرأ! يجب أن نقرأ!

- كي نتعلم.
- كي ننجح في دراستنا.
- كي نعلم ما يجري في العالم.
- كي نعلم من أين جئنا.
- كي نعلم من نحن.
- كي نعرف الآخرين بشكل أفضل.
- كي نعلم إلى أين نمضي.

- كي نحافظ على ذاكرة الماضي.
- كي نضيء الحاضر.
- كي نستفيد من الخبرات السابقة.
- كي لا نكرر أخطاء من سبقونا.
- كي نكسب الوقت.
- كي نفرّ من الواقع.
- كي نبحث عن معنى للحياة.
- كي نفهم أسس حضارتنا.
- كي نُبقي فضولنا متيقظاً.
- كي نتسلى.
- كي نتواصل.
- كي نمارس فكرنا النقدي.

والأستاذ يوافق على ذلك في هامش الأوراق: "نعم، صحيح، ج، ج ج[1]، تماماً، فكرة مهمة، بالضبط، دقيق تماماً"، ويلجم نفسه كي لا يهتف: "أيضاً! أيضاً!" هو الذي رأى "الولد" هذا الصباح، في ممر الثانوية، ينقل بسرعة كبيرة ملخص قراءته من ملخص ستيفاني، هو الذي يعرف، عن تجربة، أن أغلب الاستشهادات التي يقرأها في هذه الكتابات العاقلة منقولة من قاموس ملائم، هو الذي يفهم من النظرة الأولى أن الأمثلة المختارة ("أعطوا أمثلة مأخوذة من تجربتكم الشخصية") مقتبسة من قراءات قام بها آخرون، هو الذي مازالت أذناه تطنّان من صرخات الاحتجاج التي سبّبها عندما فرض عليهم قراءة الرواية القادمة:

- ماذا؟ أربعمائة صفحة في خمسة عشر يوماً! لن نستطيع ذلك أبداً يا أستاذ!
- عندنا فحص رياضيات!
- وموضوع الاقتصاد الذي يجب أن نسلّمه الأسبوع القادم!

---

١ ج = جيد، ج ج = جيد جداً، اختصارات يضعها الأساتذة على أوراق الامتحان. (م)

ورغم أنه يعرف الدور الذي لعبه التلفزيون في مراهقة ماتيو وليلى وبريجيت وكامل وسيدريك، إلا أن الأستاذ يوافق من جديد، بجرّة قوية من قلم تصحيحه الأحمر، عندما يؤكد سيدريك وكامل وبريجيت وليلى وماتيو أن التلفاز هو "العدوّ الأوّل" للكتاب - وحتى السينما - لأن التلفاز والسينما يفترضان السلبية الأكثر حيادية، بينما تشكل القراءة فعلاً مسؤولاً (ج ج!)

رغم ذلك، فإن الأستاذ، عند هذا الحدّ، يضع قلمه ويرفع رأسه كطالب يحلم، ويتساءل - من أجله هو فقط - إن لم تكن بعض الأفلام، رغم كل شيء، قد تركت في ذهنه ذكريات كذكريات الكتب.

كم من مرة أعاد "قراءة" ليلة الصياد، أماركور، ماناتان، غرفة مع إطلالة، وليمة بابِت، فاني وألكسندر[1]؟ لقد كانت هذه الصور تبدو له حاملة لسرّ الإشارات. طبعاً، ليس هذا الكلام بكلام مختص - فهو لا يفقه شيئاً في نحو التصوير السينمائي ولا يفهم معجم هواة السينما -، إنه مجرد كلام عينيه. لكن عينيه تقولان له بوضوح إن هناك صوراً لا يستهلك المرء معناها وإن ترجمتها تثير كل مرة مشاعر وأحاسيس جديدة، ومن ضمن هذه الصور صور تلفزيونية، نعم: وجه الأب العجوز باشلار، فيما مضى، في "قراءات للجميع"،... وخصلة جانكيليفيتش في "نداءات"...[2] والهدف الذي سجّله المهاجم بابان ضد فريق ميلانو برلسكوني...

لكن الساعة تدور. يعود الأستاذ إلى تصحيح أوراقه. (من سيتكلم ذات يوم عن عزلة المصحّح؟). بعد عدة أوراق، بدأت الكلمات تقفز أمام عينيه، والحجج بدأت تميل إلى التكرار. بدأ ينرفز. إن الطلاب يرددون على مسمعه محتوى كتاب صلوات: على المرء أن يقرأ، على

---

١ عناوين أفلام سينمائية. (م)

٢ أسماء برامج تلفزيونية. (م)

المرء أن يقرأ! السلسلة الطويلة المملة من نصائح التربويين: يجب أن تقرأوا... في الوقت الذي تدل فيه كل جملة من جملهم على أنهم لا يقرأون أبداً.

٣٠

– لماذا أنت منزعج إلى هذا الحدّ يا عزيزي؟ طلابكم يكتبون ما تنتظرون منهم!

– وماذا ننتظر منهم؟

– أن القراءة واجبة! العقيدة! هل كنت تأمل فعلاً أن يكون هناك عدة مواضيع يُطري فيها الطلاب على حرق الكتب؟

– ما أنتظره أنا منهم هو أن ينزعوا سمّاعات مسجّلاتهم ويبدأوا بالقراءة بشكل جدي!

– أبداً... ما تنتظره أنت منهم هو أن يعطوك ملخّصات قراءة جيدة للروايات التي "تفرضها عليهم"، أن "يشرحوا" بشكل صحيح القصائد التي "اخترتها أنت لهم"، وأن يحلّلوا، يوم الامتحان، وبشكل دقيق، نصوص "لائحتك أنت"، وأن "يفسّروا" بحكمة أو "يلخّصوا" بذكاء ما سيضعه الممتحِن أمام أنظارهم في ذلك الصباح... لكن لا الممتحن ولا أنت ولا الأهاليَ، لا أحد منكم يريد بشكل خاص أن يقرأ هؤلاء الأطفال. لاحظ أنهم، هم أيضاً، لا يتمنّون العكس. إنهم يتمنّون النجاح في دراستهم، وهذا كل شيء! وبالنسبة لما تبقى، فإن لهم مشاغل أخرى أهم. وعلى فكرة، فلوبير أيضاً كانت لديه مشاغل أخرى! فإن كان ينصح لويز بقراءة الكتب، فإنّ ذلك كان فقط من أجل أن تتركه بسلام، أن تدعه يعمل على راحته في كتابة **مدام بوفاري**، وأن لا تحبل من وراء ظهره. هذه هي الحقيقة، وأنت تعرفها جيداً.

عبارة "اقرئي لتحيي!"، بقلم فلوبير عندما كان يكتب للويز، معناها الجلي

هو: "اقرئي كي تتركيني، **أنا**، أحيا". فهل شرحت ذلك لطلابك؟ لا؟ لماذا؟

تبتسم وتضع يدها على يده:

- يجب أن تقبل بذلك يا عزيزي: "فعبادة الكتاب جزءٌ من الشعائر المتناقلة شفوياً"، وأنت كاهنها الكبير.

٣١

"لم أجد أي محرض كان في الدروس التي تعطيها المدارس. حتى لو كانت المادة التعليمية أكثر غنىً وأهميةً مما كانت عليه في الواقع، فإن التحذلق الكئيب لأساتذة منطقة بافيير[١] كان قادراً على جعلي أقرف من أكثر المواضيع أهمية".

"كل ما أملك من ثقافة أدبية، حصلت عليه خارج المدرسة"...

"وتختلط أصوات الشعراء في ذاكرتي مع أصوات أولئك الذين عرّفوني بهؤلاء الشعراء لأول مرة: هناك بعض آثار المدرسة الرومانسية الألمانية التي لا يمكنني أن أعيد قراءتها دون أن أسترجع صوت ميلين بنبرته المتأثرة ورنّته المريحة. وقد اعتادت ميلين أن تقرأ لنا طوال الوقت الذي كنا فيه صغاراً تصعب القراءة علينا".

(...)

"ومع ذلك فقد كنا نصغي بخشوع أكبر لصوت 'الساحر' الهادئ... وكان كتّابه المفضلون من الروس. كان يقرأ لنا **القوزاق** لتولستوي والأمثال الطفولية جداً، وذات الفحوى التربوي المبسّط جداً، التي كتبها في مرحلته الأخيرة... كنا نصغي إلى قصص غوغول وحتى إلى عمل من أعمال دوستويفسكي – أقصد ذلك العمل الهزلي المقلق الذي يحمل عنوان: **قصة أليمة**.

(...)

"ليس هناك أدنى شك من أن الساعات المسائية الجميلة التي كنا نقضيها

---

١ منطقة في جنوب ألمانيا. (م)

في مكتب والدنا لم تكن تحرّض مخيلتنا فحسب، بل وفضولنا أيضاً. فما إن يتذوق المرء لمرة واحدة السحر الجذّاب للأدب العظيم والراحة التي يمنحها حتى يحاول أن يتعرف دوماً على أعمال عظيمة أخرى – على 'قصص مضحكة' أخرى، وأمثال مليئة بالحكمة، وقصص متعددة المعاني، ومغامرات غريبة. وبهذا الشكل نبدأ بالقراءة بأنفسنا..."[1]

هذا ما قاله كلاوس مان، ابن توماس مان، "الساحر"، وميلين ذات الصوت المتأثر والرنّة المريحة.

---

١ من كتاب **المنعطف** لكلاوس مان، دار نشر سولان.

٣٢

رغم كل شيء، فإن هذا الإجماع يدعو إلى الكآبة. كما لو أن دور المدرسة، ابتداءً من ملاحظات روسّو حول تعلم القراءة، وحتى ملاحظات كلاوس مان حول تعليم الآداب في منطقة بافيير، مروراً بسخرية زوجة المدرّس الشابة ووصولاً إلى شكاوى التلاميذ هنا في أيامنا هذه، يتوقّف دائماً وفي كل مكان على تعليم التقنيات وعلى وظائف الشرح، ويقطع الطريق أمام الوصول المباشر إلى الكتب من خلال إقصائه متعة القراءة. يبدو وكأن هناك اتفاقاً أزلياً، وفي كل بقع العالم، على أن المتعة لا مكان لها في المناهج المدرسية وأن تحصيل المعرفة لا يتم إلا عبر عذاب يتفهّمه الجميع.

ويمكن بالطبع الدفاع عن هذه الفكرة.

فالحجج وافرة.

إذ لا يمكن للمدرسة أن تكون مدرسة استمتاع، لأن المتعة تتطلّب قدراً لا بأس به من المجّانية. بينما المدرسة مصنع ضروري للمعرفة التي تتطلّب الجهد. والمواد التي تُدرس فيها أدوات الوعي. ولا يمكننا أن ننتظر من المدرّسين الذين يدرّسون هذه المواد أن يتغنّوا بمجانية التعليم الفكري، بينما كل شيء، وبدون استثناء، في الحياة المدرسية - المنهاج، الملخّصات، الامتحانات، درجة الطلاب، الصفوف، الأقسام - يؤكّد على الهدف التنافسي للمؤسسة التعليمية، التي تخضع، هي نفسها، لسوق العمل.

فإن عرف تلميذ، من وقت لآخر، مدرّساً يدفعه حماسه إلى اعتبار الرياضيات لذاتها وبالتالي إلى تعليمها كما تُعلَّم الفنون الجميلة، مدرّساً يحبّب التلميذ بالرياضيات بفضل مجهوده الخاص، ويتحول الجهد بفضله إلى متعة، فإن

ذلك يخضع للصدفة أكثر مما يخضع لعبقرية المؤسسة التعليمية.

إن خاصية الكائنات الحية تكمن في قدرتها على جعلنا نحب الحياة، حتى لو اتّخذ ذلك شكل معادلة من الدرجة الثانية، لكن الحيوية لم تكن يوماً جزءاً من المناهج المدرسية.

الوظيفة هنا.

أما الحياة ففي مكان آخر.

القراءة، يتم تعلمها في المدرسة.

أما حب القراءة...

٣٣

يجب أن تقرأوا، يجب أن تقرأوا...

وماذا لو قام المدرّس، بدل أن "يجبر" طلابه على القراءة، بجعلهم "يشاركونه" سعادته الخاصة بالقراءة؟

سعادة القراءة؟ ما هو هذا الشيء المسمّى "سعادة القراءة"؟

إنها بالفعل أسئلة تفترض مراجعة عظيمة للنفس!

وأول ما نبدأ به هو الاعتراف بهذه الحقيقة التي تعارض العقيدة بشكل جذري: أغلب القراءات التي أسستنا لم نقم بها "من أجل" بل "ضد". لقد قرأنا (ونقرأ) كمن يتمترس، أو كمن يرفض، أو كمن يعارض. فإن أعطانا ذلك هيئة الفارّين، أي إن كان الواقع غير قادر على التأثير فينا لأننا نختبئ خلف "الحجاب السحري" لقراءاتنا، فإننا فارّون مشغولون ببناء أنفسنا، هاربون في طريقنا إلى ولادة جديدة.

كل قراءة هي فعل مقاومة. مقاومة ماذا؟ مقاومة كل العوارض الممكنة:

- اقتصادية.
- مهنية.
- نفسية.
- عاطفية.
- مناخية.
- عائلية.
- منزلية.
- قطيعية.

- مرضية.
- إيديولوجية.
- ثقافية.
- أو نرجسية.

فالقراءة الذكية تنقذ الإنسان من كل شيء، حتى من نفسه.

وعلاوةً على كل ذلك، فإننا نقرأ لمحاربة الموت.

مثل كافكا الذي كان يقرأ لمحاربة مشاريع أبيه التجارية، وفلانري أوكنور وهي تقرأ رغم سخرية والدتها ("**الأبله**؟ يناسبك أن تشتري كتاباً يحمل عنواناً كهذا!")، ومثل تيبودي وهو يقرأ مونتيني في خنادق معركة فردان، أو هنري موندور[1] الغارق في قراءة مالارميه في فرنسا أيام الاحتلال والسوق السوداء، ومثل الصحافي كوفمان وهو يعيد لمرات غير معدودة قراءة نفس الجزء من **الحرب والسلم** في سجون بيروت، ومثل ذاك المريض الذي خضع لعملية جراحية بدون تخدير والذي يقول عنه فاليري إنه "وجد تخفيفاً لألمه، أو بالأحرى وجد ما يمدّه بالقوة وبالصبر، في أن يردّد لنفسه، بين ذروتي ألم، قصيدة كان يعشقها"، وبالطبع، أيضاً، مثل مونتيسكيو (الذي جعل منه القسر التربوي مادةً لمواضيع إنشاء لا حصر لها) الذي يقول: "لقد شكلت الدراسة بالنسبة لي علاجاً عظيماً ضد أشكال القرف، فلم يصبني حزن ما إلا وانتشلتني منه القراءة".

وعلى اختلاف ساعات النهار، يحمي ملجأ الكتاب من قرقعة المطر، ويقاوم إبهار الصفحات الصامت ضجّة المترو، ومثل ذلك الرواية المخبأة في درج السكرتيرة، وقراءة الأستاذ القصيرة بينما يقوم التلاميذ بالجواب على أسئلة الامتحان، والطالب في آخر الصف وهو يقرأ خفيةً بانتظار أن يسلّم ورقة امتحان بيضاء...

---

١ طبيب وكاتب فرنسي (١٨٨٥-١٩٦٢) ألّف في النقد والتاريخ الأدبي، اهتم كثيراً بمالارميه. (م)

٣٤

من الصعب أن ندرّس الآداب في الوقت الذي تتطلب فيه القراءة هذا القدر من العزلة والصمت.

القراءة فعل تواصل؟ إنها مزحة أخرى من مزحات الشرّاح! فما نقرأه نصمت عنه. فنحن غالباً ما نحتفظ بمتعة الكتاب المقروء في قرارة غيرتنا، إما لأننا لا نجد في ذلك مادة لحديث يُروى، وإما لأنه ضروري أن ندع الزمن يقوم بعملية التخمير الرائعة قبل أن يكون باستطاعتنا أن نتكلم عمّا قرأنا. هذا الصمت هو ضمان حميميتنا. صحيح أننا انتهينا من قراءة الكتاب لكننا لا نزال فيه. مجرد ذكره يفتح ملجأً لتمرداتنا. إنه يحمينا من "الخارج الكبير"، ويقدّم لنا نقطة مراقبة تعلو بكثير المشاهد العارضة. لقد قرأنا، وها نحن نصمت. إننا نصمت "لأننا" قرأنا. وسيكون من المستهجن أن يكمن لنا شخص ما بانتظار نهاية قراءتنا ليسألنا: "هاااات لشوف. هل أعجبك ما قرأت؟ هل فهمت؟ هيا قدّم تقريرك!".

وأحياناً يكون التواضع سبب صمتنا. ليس المقصود هنا التواضع المجيد للمحللين المهنيين، بل الوعي الذاتي، المتوحّد، والمؤلم نوعاً ما، بأن هذه القراءة، بأن هذا الكاتب "غيّر حياتي" كما يقال.

أو، فجأةً، هذا الانبهار الآخر الذي يعقد اللسان: كيف يُعقل أنّ ما هزّني بعنف لتوه لم يغيّر مجرى العالم في شيء؟ أيعقل أن يكون قرننا على ما هو عليه بعد أن كتب دوستويفسكي <u>الشياطين</u>؟ من أين جاء بول بوت[1] وغيره رغم وجود شخصية

١ زعيم "الخمير الحمر" في كمبوديا لعدة سنوات. (م)

بيوتر فيرخوفنسكي؟ ورعب المعتقلات بعد أن كتب تشيخوف **سَخالين**؟ من استضاء بنور كافكا الأبيض حيث كانت أسوأ قناعاتنا تتقطّع كألواح التوتياء؟ ومن استمع إلى والتر بنجامين في الوقت الذي كان الرعب ينتشر فيه؟ وكيف حدث، بعد أن تم كل شيء، أن العالم بأسره لم يقرأ **النوع البشري** لروبير أنتيلم، ولو لمجرد إعتاق مسيح كارلو ليفي، الذي أسر نهائياً في إبولي؟

أن تكون بعض الكتب قادرة لهذه الدرجة على هزّ ضميرنا وترك العالم يمضي في أسوأ الطرق، فهو أمر يدعو إلى الذهول.

فلنصمت إذاً...

طبعاً ماعدا ثرثاري السلطة الثقافية.

آه من كلام الصالونات التي (وبما أنه ليس لأحد فيها ما يقوله لغيره) تصبح القراءة فيها أحد مواضيع الحديث الممكنة. وتخسف الرواية فتُحَطّ إلى مستوى "استراتيجية تواصل"! كل هذا القدر من الصراخ الصامت، ومن المجانية العنيدة، كي يذهب هذا الأحمق ليغازل تلك المرأة الوقحة: "ماذا، ألم تقرأوا رواية **سفر إلى آخر الليل**[1]؟

يقتل الإنسان لأقل من هذا.

---

[1] رواية للكاتب الفرنسي سِلين. (م)

٣٥

مع ذلك، فإن لم تكن القراءة فعل تواصل "مباشر"، فإنها، في "المحصلة"، مادةُ مشاركة. لكنها مشاركة مؤجّلة لوقت طويل وانتقائية بشدة.

إذا أخذنا بالاعتبار القراءات المهمة التي ندين بها للمدرسة، للنقد، لكل أشكال الإعلان، أو بالعكس، للصديق، للعشيق، لزميل الصف، بل وللعائلة – عندما لا تكون العائلة من النوع الذي يضع الكتب في الخزانة التربوية – فإن النتيجة ستكون واضحة: إننا ندين بأجمل ما قرأنا لشخص عزيز علينا، وإليه، قبل غيره، نتكلم عمّا قرأنا. ربما كان مردّ ذلك إلى أن ما يميز الإحساس، ومثله الرغبة في القراءة، هو أنه يقوم على "التفضيل". الحب هو، في نهاية الأمر، أن نهب ما نفضّله للأشخاص الذين نفضّلهم، وتملأ هذه المشاركة القلعة اللامرئية لحريتنا. إننا مسكونون بالكتب والأصدقاء.

عندما يعطينا شخص عزيز كتاباً لنقرأه، فإننا نبحث، قبل كل شيء، عن هذا الكائن العزيز في السطور، نبحث عن أذواقه، عن الأسباب التي دعته ليضع هذا الكتاب بين أيدينا، نبحث عن علامات الأخوّة. ثم يأخذنا الكتاب فننسى من جعلنا نغرق فيه. إذ إن من علامات قوة الكتاب، بالتحديد، قدرته على العصف أيضاً بهذا العارض المذكور!

مع ذلك، وبمرور السنين، قد يحدث أن يحيي ذكر النص ذكرى الآخر؛ عندها تتحول من جديد بعض العناوين إلى وجوه.

ولكي نكون أكثر دقةً ليس هذا الوجه بالضرورة وجه شخص نحبه، بل وجه هذا الناقد أو ذاك المعلم (لكن ذلك نادر!).

كمثل بيير دومايي، بنظرته وصوته وصمته، الذي كان يعبّر أيام طفولتي، في

برنامجه التلفزيوني "قراءات للجميع"، عن كل احترامه للقارئ الذي سأصيره فيما بعد بفضله. وكمثل ذلك الأستاذ الذي كان عشقه للكتب قادراً على أن يجعله يتحلّى بكل أنواع الصبر وأن يمنحنا حتى وهم الحب. ولا بد أنه كان يفضّلنا - أو يقدّرنا - نحن الآخرين طلابه، لكي يعطينا لنقرأ أعزّ الأشياء إليه!

٣٦

في السيرة التي كتبها للشاعر جورج بيرّوس، يستشهد جان- ماري جيبال بهذه الجملة لطالبة من مدينة رين حيث كان بيرّوس يعلّم:

> لقد كان (بيروس) يصل الثلاثاء صباحاً وقد تبعثر شعره بفعل الريح والبرد وهو على دراجته النارية الزرقاء والصدئة، محني الظهر، في معطفه الكحلي، والغليون في فمه أو في يده. كان يفرغ خرجاً كاملاً من الكتب على الطاولة، وعندها كانت الحياة تبدأ.

وما زالت هذه الصبية المعجبة تتكلم عن ذلك حتى بعد مرور خمسة عشر عاماً. تفكر، ورأسها محني فوق فنجان قهوتها، وببطء تستدعي الذكريات، ثم تقول:

- نعم، عندها كانت الحياة تبدأ: نصف طن من الكتب، وغليونات، وتبغ، وعدد من جريدة فرانس - سوار أو الإكيب، ومفاتيح، وملخّصات، وفواتير، وشمعة احتراق للدراجة النارية... من هذه الكومة المختلطة كان ينتشل كتاباً، وينظر إلينا، ثم يطلق ضحكة كانت تفتح شهيتنا ويبدأ بالقراءة. كان يمشي وهو يقرأ، إحدى يديه في جيبه، والأخرى، الممسكة بالكتاب، ممدودة قليلاً إلى الأمام كما لو أنه، بقراءته الكتاب، كان يقدّمه لنا. كل تلك القراءات كانت هدايا، ولم يكن يطلب منا شيئاً بالمقابل. وعندما كان يفتر انتباه واحد أو واحدة منا كان يتوقف عن القراءة لثانية وينظر إلى هذا الحالم ويصفّر قليلاً.

لم يكن ذلك تأنيباً بل كان نداءً فرحاً لاستعادة الانتباه. لم يكن نظره يحيد عنا. حتى في أعمق لحظات قراءته كان ينظر إلينا من فوق السطور. كان يتمتع بصوتٍ رنّان ومضيء، رخيم بعض الشيء، يملأ تماماً فراغ الصفوف كقدرته على ملء مدرج أو مسرح أو "شان دو مارس"[1] دون أن تُلفظ كلمة واحدة أعلى من الأخرى. لقد كان يقيس، بشكل غريزي، المكان وأدمغتنا. لقد كان مكبّر الصوت الطبيعي لكل الكتب، كان تجسيدَ النص، كان الكتاب وقد تحوّل إنساناً. من خلال صوته كنا نكتشف فجأةً أن كل هذا كُتِبَ "من أجلنا نحن". لقد جاء هذا الاكتشاف بعد فترة دراسة طويلة جداً أبقانا تعليم الأدب خلالها على مسافة محترمة من الكتب. ما الذي كان يفعله إذاً أكثر من أساتذتنا الآخرين؟ لا شيء. حتى أنه، من بعض النواحي، كان يفعل أقل منهم بكثير. لكنه لم يكن يقدم لنا الأدب عبر قطّارة التحليل، بل كان يمنحه لنا على شكل رشفات كبيرة... وكنا نفهم كل ما يقرأه لنا. كنا نفهمه سماعاً. ولم يكن هناك من شرح للنص أوضح من صوته عندما كان يستبق قصد الكاتب أو يكشف عن معنى مستتر، أو يفصح عن إيحاء ما... كل فهم خاطئ كان مستحيلاً معه. لقد كان من غير الممكن على الإطلاق، بعد سماعه وهو يقرأ "الحب والتقلّب المزدوج"[2]، متابعة التندّر بالغزل وإضفاء اللون الزهري على الدمى البشرية لمسرح التشريح هذا. لقد كانت دقة صوته تدخلنا في مخبر حقيقي، وكان جلاء إلقائه يدعونا إلى ممارسة التشريح. مع هذا فإنه لم يكن يبالغ في الأمر ولم يكن يجعل من ماريفو مجرد مدخل إلى دو ساد[3]. وبالرغم من ذلك فإننا كنا نشعر، طوال قراءته، أننا نرى مقطعاً لدماغي أرلوكان وسيلفيا[4]، كما لو أننا كنا مخبريي هذه التجربة.

كان يعطينا درساً لمدة ساعة في الأسبوع، وكانت هذه الساعة تشبه خرجه

---

١ السهل الواسع المحيط ببرج إيفل في باريس. (م)

٢ مسرحية لماريفو (١٦٨٨-١٧٦٣). (م)

٣ الماركيز دو ساد (١٧٤٠-١٨١٤) كاتب فرنسي معروف بكتاباته الإباحية. (م)

٤ شخصيتان من المسرحية الآنفة الذكر. (م)

بكل ما يحتويه. عندما غادرَنا في نهاية العام، قمت بحساباتي: شكسبير، بروست، كافكا، فيالات، ستراندبرغ، كيركيغارد، موليير، بيكيت، ماريفو، فاليري، هويسمان، ريلكه، باتاي، غراك، هاردلت، سرفانتس، لاكلوس، سيوران، تشيخوف، هنري توماس، بوتور... لا أذكرهم بالترتيب، ولا بد أنني نسيت عدداً مساوياً لهم. ولم أكن قد سمعت، في عشر سنوات، عُشرهم!

كان يكلّمنا عن كل شيء، ويقرأ لنا كل شيء، لأنه "لم يكن يفترض أن رؤوسنا تحتوي على مكتبات". كانت تلك درجة الصفر من سوء النية. كان يعتبرنا كما كنا: خريجي بكالوريا لا يعرفون شيئاً ويستحقون المعرفة. ولم تكن المسألة مسألة تراث ثقافي أو أسرار مقدسة رُفعت إلى الأعالي كالنجوم؛ معه، لم تكن النصوص تهبط من السماء بل كان يلتقطها من الأرض ويعطيها لنا لنقرأها. كان كل شيء هنا، حولنا، يضجّ بالحياة. وإني لأذكر خيبتنا، في البداية، عندما تعرّض للكتاب المرموقين، أولئك الذين كان أساتذتنا بالطبع قد حدّثونا عنهم، الكتّاب القلائل الذين كنا نتصور أننا نعرفهم جيداً: لافونتين، موليير... بساعة واحدة، فقدوا مكانتهم كآلهة مدرسية ليصبحوا في نظرنا حميميين وغامضين، أي لا غنى عنهم. كان بيرّوس يحيي الكتّاب. انهض وامشِ: من أبولينير إلى زولا، من بريخت إلى وايلد، كانوا يأتون جميعاً إلى صفنا، أحياء تماماً، كما لو أنهم كانوا خارجين لتوهم من عند "ميشو"، المقهى المقابل للجامعة. وفي هذا المقهى كان يقدّم لنا أحياناً استراحة ثانية. ومع ذلك، فإنه لم يكن يمثّل دور الأستاذ – الرفيق، إذ لم يكن من ذلك النوع. لقد كان يتابع، بكل بساطة، ما كان يسميه "درس الجهل". لقد كانت الثقافة معه تتوقف عن أن تكون عقيدة دولة، وخشبة البار تتحول إلى مصطبة صف. ونحن أنفسنا، لم نكن نشعر، ونحن نصغي إليه، بالرغبة في الدخول في العقيدة أو تقمّص لباس المعرفة. كانت رغبتنا الوحيدة هي أن نقرأ، هذا كل شيء... وما إن يسكت حتى نهجم على مكتبات رين وكامبير[1]. وبالفعل، كلما كانت قراءتنا تزداد كان يتفاقم شعورنا بأننا جاهلون، ووحيدون على شاطئ جهلنا،

١ مدينتان في فرنسا. (م)

في مواجهة البحر. الفرق هو أننا، بوجوده، لم نكن نخشى على أنفسنا البلل. كنا نغوص في الكتب دون أن نضيّع وقتنا في تخبّط متردد. لا أعرف كم طالباً أو طالبة منا أصبح مدرّساً... ليس كثيراً على ما أظن. وفي الحقيقة أعتبر ذلك خسارة، لأنه، بكل بساطة، ورّثنا رغبة رائعة هي الرغبة في نقل ما نعرف للآخرين. وأقصد نقل ما نعرف في كل الاتجاهات. هو الذي كان يسخر كثيراً من التعليم، كان يحلم مازحاً بجامعة متنقلة:

– ماذا لو تمشينا قليلاً... وماذا لو ذهبنا للقاء غوته في فيمار[1]، وصرخنا في وجه الإله مع الأب كيركيغارد، وقرأنا **الليالي البيض**[2] في "شارع نيفسكي"[3]...

---

١ مدينة ألمانية. (م)

٢ رواية لدوستويفسكي. (م)

٣ يتلاعب الكاتب هنا بالألفاظ، إذ إن شارع نيفسكي هو اسم قصة لغوغول. (م)

٣٧

"القراءة، قيامة أليعازر، رفع بلاط الكلمات."
جورج بيرّوس، من ديوان "فتحات".

٣٨

ذاك المدرّس لم يكن يقدّم معرفة بل كان يُهدي ما كان يعرفه. لم يكن أستاذاً بقدر ماكان معلّماً تروبادوراً[١] – من هؤلاء الشعراء الجوّالين المتلاعبين بالكلمات الذين كانوا يمرّون بالاستراحات على طريق كومبوستيلا[٢] ويتغنّون بمآثر الأبطال أمام الحجّاج الأميين.

وبما أن لكل شيء بداية، فقد كان يجمع كل سنة قطيعه الصغير عند البدايات الشفوية للرواية. وكان صوته، كصوت التروبادور، يتوجه إلى جمهور "لا يعرف القراءة". كان يفتح عيوناً، ويشعل مصابيحَ، ويقود أتباعه على طريق الكتب، وهو طريق حجّ لا نهاية له ولا يقين فيه، طريق الإنسان نحو الإنسان.

– أهم شيء هو أنه كان يقرأ لنا كل شيء بصوتٍ عال! كم كان واثقاً من رغبتنا في أن نفهم... الإنسان الذي يقرأ بصوتٍ عالٍ يرفعنا إلى مستوى الكتاب. إنه يُقرئنا فعلاً!

١ التروبادور هو الشاعر الجوال في القرون الوسطى كان ينشد مآثر الأبطال مرفقاً ذلك بالعزف على آلة موسيقية. (م)

٢ مركز حج مسيحي حيث يوجد قبر القديس جاك، في مدينة كومبوستل في شمال غرب إسبانيا. (م)

٣٩

بدلاً من ذلك فإننا، نحن الآخرين الذين قرأنا وندّعي نشر حب الكتاب، نفضّل غالباً أن نكون معلّقين وشرّاحاً ومحللين ونقاداً وكتّاب سير ومفسرين لأعمال نجعلها خرساء بسبب الشهادة البارّة التي نقدمها عن عظمتها. ويحلّ كلامنا محلّ كلام الكتاب وقد صار أسير قلعة مقدراتنا. وبدل أن نترك ذكاء النص يتكلم من خلال فمنا، فإننا نعتمد على ذكائنا نحن ونتكلم عن النص. لسنا رسل الكتاب بل الحراس المحلّفين لمعبد نتغنّى بكنوزه بكلمات تغلق أبوابه. "يجب أن تقرأ! يجب أن تقرأ!".

٤٠

"يجب أن تقرأ": إنه منطق مقلوب على سمع المراهقين. ومهما كنا لامعين في المماحكة المنطقية... فإن الأمر لا يعدو منطقاً مقلوباً ليس إلا.

من بين طلابنا، أولئك الذين اكتشفوا الكتب بوسائل أخرى سيتابعون القراءة بكل بساطة، وسيقوم أكثرهم فضولاً بقيادة قراءاتهم على نور مصابيح شروحاتنا الأكثر إضاءة.

ومن بين أولئك "الذين لا يقرأون" سيتعلم أكثرهم فطنةً، كما تعلمنا نحن، كيف "يتكلم عن الكتب": سيصبحون مميزين في فن الشرح التضخّمي (أقرأ عشرة سطور، وأبيّض عشر صفحات)، وفي الممارسة الوحشية لملخّص القراءة (أطّلع على ٤٠٠ صفحة، وألخّصها في خمس صفحات) وفي الصيد المحكم للاستشهادات (يجدونها في موجزات الثقافة المجلّدة في برادات بائعي النجاح)، وسيتعلمون استخدام مشرط التحليل الخطي ويصبحون خبراء في الإبحار الحذر بين "النصوص المختارة" التي تؤدي بالتأكيد إلى الحصول على البكالوريا والليسانس وحتى على درجة الأستاذية... لكنها لا تقود حتماً إلى محبة الكتاب.

ويبقى الطلاب الآخرون.

أولئك الذين لا يقرأون والذين ترعبهم باكراً إشعاعات "المعنى".

أولئك الذين يظنون أنهم أغبياء...

وأن الكتاب حُرّم عليهم إلى الأبد...

وأنهم سيبقون دون جواب إلى الأبد...

وقريباً دون أسئلة.

٤١

تعالوا نحلم.

لنفترض أننا في الامتحان المسمى "الدرس" في مسابقة الأستاذية في الآداب.

موضوع الدرس هو: "مستويات الوعي الأدبي في رواية **مدام بوفاري**".

الشابة الصغيرة المتقدّمة للمسابقة جالسة في مقعدها، في مستوى أدنى بكثير من مستوى أعضاء لجنة التحكيم الستة الجالسين هناك في الأعلى، فوق منصتهم. ولكي نزيد من عظمة الموقف دعونا نفترض أن المشهد يجري في مدرّج السوربون الكبير، حيث رائحة القرون والخشب المقدس، وصمت المعرفة العميق.

وجمهور قليل مكون من أقارب وأصدقاء مبعثرين في المدرّج، بقلب واحد، يسمعون دقاته تتناغم مع خوف الشابة الصغيرة. كل الصور تُرى من الأسفل إلى الأعلى، والشابة قابعة في القعر، يسحقها الخوف مما بقي لها من جهل.

طقطقات خفيفة، سعلات مخنوقة، إنها الأبدية أمام الامتحان.

تضع اليدُ المضطربة للشابة أوراق ملاحظاتها أمامها، وتفتح نوطة معرفتها: "مستويات الوعي الأدبي في **مدام بوفاري**".

رئيس لجنة التحكيم (بما أننا في حلم، دعونا نُلبسه ثوب المحكّمين الأحمر القانئ، ونجعله متقدماً في العمر، بأكتاف سمّور، وشعر مستعار يتهدل

كأذني كلب كوكر[1] فيزيد من حدة تجاعيده الغرانيتية) رئيس لجنة التحكيم، إذاً، ينحني على يمينه ويرفع طرف الشعر المستعار لزميله ويهمس كلمتين في أذنه. مساعد رئيس اللجنة (أصغر سناً، بملامح نضوج ورديّ اللون ينمّ عن المعرفة، يرتدي نفس الثوب وله نفس الشعر المستعار) يهزّ رأسه بخطورة علامة الموافقة، وينقل نفس الكلام لجاره بينما الرئيس يهمس عن يساره. وتنتقل الموافقة بهزّ الرأس إلى طرفيّ الطاولة.

"مستويات الوعي الأدبي في **مدام بوفاري**". ولا ترى الشابة التائهة في كُتيبات ملخّصاتها، التي أفقدتها صوابها البلبلة المفاجئة لأفكارها، أعضاء لجنة التحكيم وقد وقفوا، لا تراهم وقد نزلوا من المنصة، لا تراهم وقد اقتربوا منها، لا تراهم وقد أحاطوا بها. ترفع عينيها لتفكر فترى نفسها حبيسة شبكة نظراتهم. كان يجب أن تشعر بالخوف، لكنها مشغولة جداً بالخوف من ألاّ تعرف. بالكاد تتساءل: لماذا هم قريبون مني لهذه الدرجة؟ وتعود إلى الغوص في ملاحظاتها. "مستويات الوعي الأدبي..." لقد أضاعت مخطط درسها. رغم أنه كان مخططاً واضحاً تماماً! ما الذي فعلته بمخطط درسها؟ من سيعيد لها وضوح براهينها؟

– يا آنسة...

لكن الصبيّة لا تريد أن تصغي للرئيس. وها هي تبحث، تبحث عن مخطط درسها الذي أطارته زوبعة معرفتها.

– يا آنسة...

إنها تبحث ولا تجد. "مستويات الوعي الأدبي في **مدام بوفاري**"... تبحث وتجد كل الأمور الأخرى، كل ما تعرف. ما عدا مخطط درسها، إلا مخطط درسها.

– يا آنسة، أرجوك...

هل لأن يد الرئيس حطّت على كتفها؟ (ومنذ متى كان رؤساء لجان التحكيم في مسابقة الأستاذية يضعون أيديهم على أذرع المتقدمين للمسابقة؟) أم هو

---

[1] كلب إنكليزي له أذنان طويلتان تتهدلان على جانبي الرأس. (م)

التضرع الطفولي غير المتوقّع إطلاقاً في هذا الصوت؟ أم لأن مساعدي الرئيس بدأوا يتململون على كراسيّهم (فقد حمل كلّ منهم كرسيه وجلسوا جميعاً حولها)... ترفع الصبيّة في النهاية عينيها:

- يا آنسة، أرجوك، دعي جانباً مستويات الوعي...

نزع الرئيس ومساعدوه شعورهم المستعارة، وبان شعرهم الحقيقي مبعثراً كشعر أطفال صغار، وطلبوا منها بعيون مفتوحة تماماً وبلهفة جائع:

- يا آنسة... احكي لنا **مدام بوفاري**!

- لا، لا، احكي لنا بالأحرى روايتك المفضلة!

- نعم، **نزهة المقهى الحزين**! بما أنك تحبين كثيراً كارسون ماكّولر، يا آنسة، احكي لنا **نزهة المقهى الحزين**!

- ثم تعطينا الرغبة في قراءة **أميرة كليف**، أليس كذلك؟

- أعطينا فعلاً الرغبة في القراءة يا آنسة!

- الرغبة فعلاً!

- احكي لنا **أدولف**!

- اقرئي لنا **دودالوس، فصل النظارات**!

- كافكا! أي شيء من **يومياته**...

- سفيفو! **وعي زينو**!

- اقرئي لنا **مخطوطة ساراغوس**!

- الكتب التي تفضّلين!

- **فيرديدورك**!

- **تعاويذ الأغبياء**!

- لا تنظري إلى الساعة، عندنا وقت!

- أرجوكِ...

- احكي لنا!

- يا آنسة...

- احكي لنا!

- **الفرسان الثلاثة**...

- ملكة التفاح...
- جول وجيم...
- شارلي ومعمل الشوكولا!
- ملك الكلمات المعوجّة!
- بازيل!

الفصل الثالث

التشجيع على القراءة

٤٢

لنأخذ صفاً من صفوف المراهقين، يحتوي على حوالى خمسة وثلاثين تلميذاً. وهم ليسوا من أولئك التلاميذ المنتقين بعناية لاجتياز أبواب الجامعات الكبرى بسرعة، لا، إنهم من النوع "الآخر"، من الذين لم تقبل بهم الثانويات المشهورة لأن مستواهم لا يسمح لهم بأن يحصلوا على البكالوريا بعلامات جيدة، بل قد لا يسمح لهم بالحصول على البكالوريا إطلاقاً.

نحن في بداية العام.

لقد "رسوا" هنا.

في هذه المدرسة.

أمام هذا المدرّس.

"رسوا" كلمة معبّرة فعلاً. فقد رسوا على الشاطئ بينما زملاء الأمس صاروا في "أعالي" البحر على متن ثانويات – سفن منطلقة نحو مستقبل عظيم. وهم يصفون أنفسهم، عندما يملأون كالعادة استمارة بداية السنة، بهذا الشكل:

الاسم، الشهرة، تاريخ الولادة...

معلومات إضافية:

"لقد كنت دوماً سيئاً في الرياضيات"... "اللغات لا تثير اهتمامي"... "لا أستطيع التركيز"... "لست أهلاً للكتابة"... "هناك مفردات زيادة عن اللزوم في الكتب" (أنقل ذلك حرفياً! نعم حرفياً!)... "لا أفقه شيئاً في الفيزياء"... "حصلت دائماً على علامة الصفر في الإملاء"... "في مادة التاريخ، أستطيع أن أسلّك، لكني لا أحفظ التواريخ"... "أعتقد أنني لا أدرس بما فيه الكفاية"... "أعاني من صعوبة في الفهم"... "لقد فاتتني أشياء

كثيرة"... "أتمنى أن أرسم لكنني لست شاطراً في ذلك"... "كان الأمر صعباً جداً بالنسبة لي"... "ذاكرتي ضعيفة"... "تنقصني الأساسيات"... "تنقصني الأفكار"... "لا أجد كلمات أعبّر بها"...

"منتهون"...

هكذا يرون أنفسهم.

إنهم منتهون قبل أن يبدأوا.

طبعاً، يبالغون قليلاً. هذا النوع من الاستفسارات يتطلب ذلك. فالاستمارة الشخصية، كما اليوميات الخاصة، تستدعي النقد الذاتي: يسوّد المرء صورته بشكل غريزي. ثم إننا عندما نتّهم أنفسنا من كل النواحي فإننا نضع أنفسنا في منأى عن كل ما قد يُطلب منا. وتكون المدرسة قد علّمتهم على الأقل هذا: الراحة التي يمنحها القدر. إذ لا شيء يريح أكثر من صفر دائم في الرياضيات أو في الإملاء: فبإلغاء كل إمكانية للتقدم، يتخلّص الطالب من كل منغّصات الجهد. أما فيما يخص الاعتراف بأن الكتب تحتوي على "مفردات زيادة عن اللزوم"، فمن يدري؟ ربما وضعه ذلك في مأمن من القراءة...

بالرغم من ذلك، فهذه الصورة التي يعطيها هؤلاء المراهقون عن أنفسهم لا تشبههم: إذ ليس لهم مظهر الطالب الكسول بجبهته الواطئة وذقنه المربّعة كما يمكن أن يتخيله مخرج سينمائي فاشل عند قراءة تلغرافاتهم السيرذاتية.

لا، إن لهم مظاهر عصرهم المتعددة: تسريحة على شكل موزة وجزمة جلد سانتياغ[1] لمن تقمّص شخصية مغني روك، ثياب من ماركة بورلانغتُن وشُفينيون[2] لمن يحلم بالملابس، سترة برفكتو[3] لكن بدون دراجة نارية، شعر طويل، أو قصير خشن، حسب الميول العائلية... تلك الفتاة، هناك، تعوم في قميص أبيها الذي يصل إلى ركبتي جينزها الممزقتين، وتلك الأخرى اتخذت مظهر أرملة من صقلية في ثيابها السوداء (ولسان حالها يقول: "لم يعد هذا

١ ماركة جزمات جلد. (م)

٢ من ماركات الثياب المعروفة. (م)

٣ سترة جلد يلبسها سائقو الدراجات النارية. (م)

العالم يعنيني")، في حين أن جارتها الشقراء، على العكس منها، وضعت كل ثقلها في الجانب الجمالي: قامةٌ كما في لوحات الإعلانات ورأس كما على أغلفة المجلات الصقيلة بعناية.

لقد خرجوا لتوهم من النُكاف والحصبة، وهاهم الآن في العمر الذي يريدون فيه أن يكونوا "عالموضة".

وهم، في غالبيتهم، طوال القامة، أطول من الأستاذ بكثير، والشبان ذوو بنية صلبة، والبنات ذوات قامات حقيقية!

يبدو للمعلّم أن مراهَقته كانت أقل وضوحاً... فقد كان ضعيف البنية نوعاً ما... من بضاعة ما بعد الحرب... ممن رُبّوا على الحليب الجاف لخطة مارشال... لقد كان الأستاذ حينها يُعاد بناؤه، مثله مثل باقي أوربا...

بينما هم، شكلهم شكل نتائج.

هذه الصحة وهذا الانسجام مع الموضة يمنحهم سمة ناضجة قد تخلق رهبة عند الآخرين. حتى أن قصّات شعرهم وملابسهم وسمّاعات الموسيقا في آذانهم وآلاتهم الحاسبة ومعجم مفرداتهم وتحفّظهم، كلها يمكن أن توحي بأنهم "متأقلمون" مع زمنهم أكثر من أستاذهم، وأنهم يعرفون عن هذا الزمن أكثر مما يعرف هو...

أكثر مما يعرف عن ماذا؟

هذا هو بالتحديد لغز سمتهم...

إذ لا شيء أكثر غموضاً من سمة ناضجة.

ولو لم يكن الأستاذ معتَّقاً "قلّع أضراسه" لكان شعر أنه خارج الزمن الحاضر، وأنه لم يعد "على الموضة"... لكن مرّ على رأسه الكثير من الأطفال والمراهقين خلال عشرين سنة من التدريس... ثلاثة آلاف وأكثر... ومرّت على رأسه موضات كثيرة... لدرجة أنه رأى بعضها يعاود الظهور!

الشيء الوحيد الذي لم يتغير هو الاستمارة الشخصية. الجمالية "الهدّامة" بكامل تبجّحها: أنا كسول، أنا "غشيم"، أنا لا أفقه شيئاً، لقد حاولت كل شيء، لا تتعب نفسك فماضيّ لا مستقبل له...

باختصار، نحن لا نحب أنفسنا. ونعبّر عن ذلك بقناعة مازالت طفولية.

إننا، في المحصلة، بين عالمين. وقد فقدنا التواصل مع الاثنين. إننا بالتأكيد "عالموضة" و"على كيفك" (وإلا شو!) لكن المدرسة "تموّتنا من الضحك"، ومتطلباتها "تدوّخ رأسنا"، ونحن لسنا بالصغار لكننا "ننحت" بانتظار أن نصبح كباراً...[١]

نتمنى أن نكون أحراراً لكننا نشعر أننا مُهمَلون.

---

١ الكلمات بين هلالين تشكل جزءاً من قاموس مفردات الشبان اليوم في فرنسا. (م)

٤٣

وطبعاً، لا نحب القراءة. فالكتب تحوي الكثير من الكلمات، والكثير من الصفحات أيضاً. وفي النهاية، حتى الكتب نفسها كثيرة جداً.

لا، لا نحب القراءة بالفعل.

هذا على الأقل ما تدلّ عليه هذه الغابة من الأصابع المرفوعة عندما يطرح الأستاذ السؤال التالي:

- من لا يحب القراءة؟

حتى أن هناك نوعاً من التحدي في شبه الإجماع هذا. أما بالنسبة للأصابع القليلة التي لم تُرفع (ومن بينها إصبع الأرملة الصقلّية) فإن السبب يعود إلى اللامبالاة التامة بالسؤال المطروح.

قال الأستاذ: طيب، بما أنكم لا تحبون القراءة... فأنا من سيقرأ لكم كتباً.

وبدون مقدمات قام بفتح حقيبته وأخرج منها كتاباً سميكاً، كالمكعب، شيئاً ضخماً فعلاً، وبغلاف صقيل. من أكثر الكتب إدهاشاً، كما يمكن أن نتخيلها.

- جاهزون؟

لم يصدق التلاميذ أعينهم ولا آذانهم. أسيقرأ لهم هذا الرجل فعلاً كل هذا؟ العمى، سنقضي السنة كلها في ذلك! سادت الحيرة... بل وساد نوع من التوتر... لا يوجد أستاذ يقترح أن يمضي السنة الدراسية في القراءة. فإما أنه كسول جداً، وإما أنه يخفي شيئاً ما. هناك خدعة تتربّص بنا. سيفرض حتماً علينا لائحة المفردات اليومية، وكذلك ملخّص القراءة الدائم...

تبادلوا النظر فيما بينهم. وقام بعضهم (من باب الحيطة) بوضع ورقة وتجهيز أقلامهم أمامهم.

- لا، لا، لا داعي لتسجيل ملاحظات. حاولوا فقط أن تصغوا.

عندها انطرحت مسألة "الوضعية". إلام يؤول جسدٌ في قاعة الدرس بدون عذر قلم الحبر الناشف والورقة البيضاء؟ ما الذي يمكن أن يفعله المرء بنفسه في وضع كهذا؟

- خذوا راحتكم، اجلسوا بارتخاء...

(بالله عليك، اسمع هالأفندي، قال "خذوا راحتكم" قال...)

وأخيراً قام أبو تسريحة الموزة وجزمة السانتياغ، الذي تغلّب عنده الفضول، بالاستفهام:

- أتريد أن تقرأ لنا كل هذا الكتاب **بصوت عال**...؟

- لا أعتقد أن بإمكانك أن تسمعني إن قَرأتَ الكتاب قراءة صامتة...

ضحك خفيف. لكن "الأرملة الصقلية" لا تصدّق هذا الكلام، ولهذا همست بصوت رنان بما فيه الكفاية حتى يسمعه الجميع:

- لقد كبرنا على ذلك.

وهو حكم مسبق كثير الانتشار... خاصةً بين أولئك الذين لم يقم أحد يوماً بتقديم القراءة هديةً لهم. الآخرون يعرفون أن هذا النوع من المتع لا يتوقف على عمر بذاته.

- إذا بقيتِ، بعد عشر دقائق، تعتقدين أنك "كبرت على ذلك"، يكفي أن ترفعي إصبعكِ، وعندها سنترك القراءة إلى شيء آخر. موافقة؟

- أي نوع من الكتب هذا؟ هكذا تساءل أبو ثياب ماركة بورلانغتُن بلهجة من مرّ على رأسه الكثير!

- هذه رواية.

- عمّ تتحدث؟

- من الصعب معرفة ذلك قبل أن نقرأها. طيب، هل أنتم جاهزون؟ انتهت المناقشات. لنبدأ!

وكانوا جاهزين... يشكّون، لكنهم جاهزون.

- الفصل الأول:

في القرن الثامن عشر عاش في فرنسا رجل يُعدّ واحداً من الشخصيات الأكثر عبقرية والأكثر مقتاً، في ذلك العصر الذي كثرت فيه العبقريات المقيتة...

٤٤

(...)

في الزمن الذي نتكلم عنه كانت تسود المدن رائحة نتنة لا يكاد يستطيع إنسان اليوم تخيلها. كانت تنتشر رائحة الروث في الشوارع، ورائحة البول في خلفيات الباحات، ورائحة الخشب العفن وبراز الجرذان في مداخل الأبنية، ورائحة الملفوف الفاسد ودهن الخراف في المطابخ؛ وكانت غرف السكن سيئة التهوية مفعمة برائحة الغبار الراكد ورطوبة أغطية الأسرّة والعفونة الحمضية للمراحيض النقالة. وكانت المداخن تبصق رائحة كبريتية بشعة، ومحلات الدباغة رائحة منقوعاتها اللاذعة، والمسالخ نتن الدم المتخثر. وكانت تفوح من الناس رائحة أسنانهم العفنة، ومن مَعداتهم رائحة عصير البصل، ومن أجسادهم، ما إن يفارقهم سن الشباب، رائحة الجبنة العفنة والحليب المحمّض والأورام الجلدية. وكانت رائحة النتن تنتشر من الأنهار والساحات والكنائس ومن تحت الجسور وفي القصور. وكانت تنبعث من الفلاح أسوةً بالكاهن، ومن الشغيل كما من زوجة معلّمه، ومن أعلى الطبقة النبيلة إلى أسفلها، وحتى الملك نفسه كانت تفوح منه رائحة بشعة كوحش بري، ومن الملكة كذلك، كمعزاة عجوز، في الصيف كما في الشتاء...[١]

١ من رواية باتريك سوسكَند **العطر** (منشورات فايار)، ترجمة برنار لورتولاري.

٤٥

ياعزيزي السيد سوسكند، شكراً لك! إن صفحاتك لتنشر عطراً يوسّع الخياشيم ويفرح القلب. لم تتمتع روايتك **العطر** يوماً بقرّاء متحمسين كهؤلاء التلامذة الخمسة والثلاثين، الذين لم يكونوا مهيّئين لقراءتك. وإني لأرجوك أن تصدّق أنه بعد مضي الدقائق العشر الأولى وجدتك "الأرملة الصقلية" مناسباً تماماً لعمرها. وقد كان مثيراً للحنان منظر كل هذه الوجوه بتقلّصاتها الصغيرة في محاولة لكتمان ضحكها حتى لا يشوّش على نثرك. وكانتا عينا "أبو ثياب ماركة بورلانغتون" تتسعان لتصبحا كأذنين، وما إن ينسى أحد زملائه نفسه ويطلق ضحكته حتى كان ينهره: "هس! العمى، سكّر تمّك". في حوالى الصفحة اثنتين وثلاثين، في الأسطر التي تقارن فيها جان باتيست غرونوي[1]، المقيم آنذاك عند السيدة غايّار، عندما تقارنه بقُرادة في حالة كمين دائم (أتذكر؟ "القرادة المتوحّدة، المركّزة والمختبئة في شجرتها، عمياء، صماء، خرساء، ومشغولة تماماً باشتمام رائحة الحيوانات التي تمرّ على بعد عدة فراسخ..."، إذاً، عند هذه الصفحات تقريباً، عندما ننزل للمرة الأولى في الأعماق اللزجة لجان باتيست غرونوي، نام الطالب أبو تسريحة الموزة وجزمة السانتياغ، وقد وضع رأسه بين ذراعيه المطويتين. لا، لا، لا توقظوه، لا شيء أفضل من نوم عميق بعد قصة هزازة، وحتى أن هذه أول متعة من متع القراءة. لقد عاد طفلاً صغيراً، أبو موزة وجزمة السانتياغ، في حالة ثقة تامة... ولقد بقي صغيراً عندما استيقظ على رنين الجرس هاتفاً:

– اللعنة، لقد نمت! ما الذي حصل عند السيدة غايّار؟

---

١ اسم الشخصية يعني: جان باتيست الضفدع. (م)

٤٦

وشكراً لكم أيضاً أيها السادة: ماركيز، كالفينو، ستفنسون، دوستويفسكي، ساكي، أمادو، غاري، فانت، داهل، روشي، أحياء كنتم أم أمواتاً! ولا واحد من بين هؤلاء الطلبة الخمسة والثلاثين العصبيين على القراءة انتظر أن يصل الأستاذ إلى نهاية كتاب من كتبكم؛ لقد كانوا يشترون الكتاب ليتمّوه قبل أن ينتهي الأستاذ من قراءته. إذ لماذا تأجيل متعة يمكن التلذذ بها في أمسية واحدة إلى الأسبوع القادم؟

- من هو سوسكند هذا؟
- أما زال حياً؟
- أي كتاب كتب غير هذا؟
- هل روايته **العطر** مكتوبة بالفرنسية؟ كأني بها مكتوبة بالفرنسية. (شكراً، شكراً لك يا سيد لورتولاري، شكراً أيها السيدات والسادة المترجمين، أنتم يا أنوار عيد العنصرة، شكراً!).

ومرّت الأسابيع...

- **قصة موت معلن** رائعة! وما الذي تحكيه **مائة عام من العزلة** يا أستاذ؟
- آه فانت، يا أستاذ، فانت[1]! روايته **كلبي غبي**! يا الله ما أطرفها!
- و**الحياة أمامنا** لأجار... بالأحرى لغاري[2]... رائع!
- إن روالد داهل فظيع فعلاً! قصة المرأة التي تقتل زوجها بضربة فخذ

---

١ الكاتب الأميركي جورج فانت. (م)

٢ رومان غاري كتب عدة روايات باسم مستعار هو إميل أجار. (م)

خروف ثم تطعم أداة الجريمة للشرطة، جعلتني أموت من الضحك!

ليكن، ليكن... صحيح أن الوسائل النقدية مازالت غير دقيقة... لكن ذلك سيأتي... لندعهم يقرأون... وستأتي الوسائل النقدية لاحقاً...

– إن أخذنا بالاعتبار المضمون، يا أستاذ، فإن كتب **الفيكونت المقتول**[١] **والدكتور جيكل ومستر هايد**[٢] وصورة **دوريان غراي**[٣] تعالج كلها تقريباً نفس الموضوع: الخير، الشر، القرين، الضمير، الغواية، الأخلاق الاجتماعية، وكل هذا، أليس كذلك؟

– بلى.

– وراسكولنيكوف[٤]، يمكن أن نقول عنه إنه شخصية "رومانسية"؟

ألم أقل لكم إن الحس النقدي سيأتي لاحقاً...

---

١ قصة فلسفية لإيتالو كالفينو. (م)

٢ قصة بقلم روبير لويس ستِفنسون. (م)

٣ رواية لأوسكار وايلد. (م)

٤ الشخصية الرئيسية في رواية **الجريمة والعقاب** لدوستويفسكي. (م)

٤٧

لم تحصل معجزات، رغم ذلك. وفضل الأستاذ، في هذه المسألة، شبه معدوم. إذ أن متعة القراءة كانت موجودة وقريبة جداً، لكنها كانت حبيسة أقبية المراهقة، سجنها فيها خوف غير معلن: الخوف (القديم جداً، جداً) من عدم "الفهم".

بكل بساطة، لقد نسي هؤلاء التلاميذ ما هو الكتاب، وما الذي يمنحه الكتاب. لقد نسوا مثلاً أن الرواية "تحكي، قبل كل شيء، قصة". لم يكونوا يعرفون أن الرواية يجب أن تُقرأ كرواية، أي أن دورها، "قبل أي شيء آخر"، هو في رواية عطشنا إلى القصة.

لإشباع هذه الرغبة الجامحة أسلمنا أمرنا، منذ وقت طويل، إلى الشاشة الصغيرة، التي تقوم بدورها بلا انقطاع، من الرسوم المتحركة إلى المسلسلات والحلقات المختلفة إلى أفلام الرعب... في سلسلة غير منقطعة من الشخصيات والمواقف المقولبة التي يمكن استبدال بعضها ببعض بسهولة: إنها وجبتنا من القصص المتخيّلة. وهي وجبة تحشو الرأس، كما نحشو البطن إذ نشعر بالشبع في وقتها، لكن ذلك لا يدوم، فالهضم يتم في اللحظة ذاتها، ويشعر الإنسان بنفسه وحيداً بعدها، كما كان وحيداً قبلها.

خلال قراءة **العطر** أمام الجميع، وجدنا أنفسنا أمام سوسكند: هي قصة بكل تأكيد، قصة جميلة وطريفة وباروكية، لكنها "صوت" أيضاً، صوت سوسكند (فيما بعد، أثناء موضوع التعبير، سنسمي ذلك "أسلوباً"). نعم، إنها قصة، ولكنها قصة يرويها "شخص ما".

– غير معقول، هذه البداية، يا أستاذ: "كانت رائحة بشعة تفوح من

الغرف... وتفوح من الناس... وتفوح من الأنهار... وتفوح من الساحات... وتفوح من الكنائس... وتفوح من الملك...»، بينما نُمنع نحن من التكرار! مع ذلك فالنص جميل، ألا توافقني؟ إنه طريف، لكنه جميل أيضاً، أليس كذلك؟

نعم، إن سحر الأسلوب يزيد من متعة القصة. وعندما ننهي قراءة الصفحة الأخيرة يبقى في رفقتنا صدى ذلك الصوت. ثم أن صوت سوسكند، رغم أنه يصلنا عبر الفلتر المزدوج، فلتر الترجمة وفلتر صوت الأستاذ، يختلف عن صوت ماركيز، "يُلاحظ ذلك فوراً!"، أو عن صوت كالفينو. من هنا يأتي هذا الانطباع الغريب بأنه في الوقت الذي يتكلم فيه الإنسان المقولب لغة عادية يتكلمها الجميع، فإن سوسكند وماركيز وكالفينو يتكلمون لغتهم الخاصة بهم، ويتوجهون بكلامهم إلي أنا وحدي، ولا يروون قصتهم إلا "لأجلي أنا"، أنا الأرملة الصقلية الشابة، أنا أبو سترة برفكتو لكن بدون دراجة نارية، أنا أبو تسريحة الموزة وجزمة السانتياغ، أنا أبو البورلانغتون، أنا الذي لم أعد أخلط بين أصواتهم بل إني صرت أفضّل بعضهم على بعضهم الآخر.

بعد ذلك بسنوات عديدة، أمام المجموعة المنفذة لحكم الإعدام، سيتذكر أورليانو بويندیا بعد ظهر ذلك اليوم البعيد من أيام طفولته يوم قاده جده ليتعرف على الجليد. كانت ماكوندو حينها قرية تضم حوالى عشرين منزلاً من الطين والقصب، مبنية على شاطئ نهر تدحرج مياهه الصافية حجارةً مستديرة كبيض ما قبل التاريخ.[1]

لقد حفظت أول جملة من **مائة عام من العزلة** عن ظهر قلب! مع هذه الحجارة "المستديرة كبيض ما قبل التاريخ"...

(شكراً لك يا سيد ماركيز. بفضلك قمنا بلعبة دامت طيلة السنة وهي لعبة تقوم على حفظ الجمل الأولى أو المقاطع المفضّلة من رواية أعجبتنا).

– أنا، ما أعجبني هو بداية رواية **أدولف** التي تتكلم عن الخجل، أتذكر؟:

---

١ غابرييل غارسيا ماركيز، **مائة عام من العزلة**.

"لم أكن أعرف أن أبي كان خجولاً، حتى مع ابني، وأنه، بعد أن انتظر مني طويلاً علامات حب كانت برودته الظاهرة تمنعني من التعبير عنها، غالباً ما كان يغادرني وقد اغرورقت عيناه بالدموع، شاكياً للآخرين أنني لم أكن أحبه".

– وكأن الرواية تتحدث تماماً عني وعن أبي!

لقد كنا منغلقين على أنفسنا أمام الكتاب المغلق، وها نحن الآن نسبح، متفتّحين، بين صفحاته.

من المؤكد أن صوت الأستاذ قد ساعد على تحقيق هذه المصالحة وذلك بأن وفّر علينا جهد فكّ الرموز، ورسم لنا بوضوح الظروف والحالات، بأن وضع بنفسه الديكورات، وجسّد الشخصيات، وأشار إلى المواضيع، وكبّر بعض الأمور الدقيقة، بأن قام على أفضل وجه بعمله ككاشف ضوئي.

لكن سرعان ما يتحول صوت الأستاذ إلى تشويش: ممتع لكنه يشوش على فرح من نوع آخر، أكثر ذكاء.

– إن قراءتك تساعدنا يا أستاذ، لكنني أسرّ كثيراً عندما أصبح بمفردي مع الكتاب.

ذلك أن صوت الأستاذ – قصة مُهداة – صالحتني مع الكتابة، وبذلك أعادت إلي طعم صوت طفولتي السري والصامت، ذلك الصوت الذي، قبل نحو عشر سنين، أفعم بالإعجاب والدهشة عند اكتشافه أن "ماما" على الورق جميلة وحقيقية كالأم في الواقع.

المتعة الحقيقية للرواية تأتي من اكتشاف هذه الحميمية المتناقضة: المؤلف وأنا... عزلة هذه الكتابة التي تتطلب إعادة إحياء النص من خلال صوتي الصامت والمتوحّد.

والأستاذ هنا لا يلعب سوى دور الخاطبة، وقد حان الوقت كي يختفي منسلاً على رؤوس أصابعه.

٤٨

إضافةً إلى هاجس عدم الفهم، هناك أيضاً خوف آخر يجب قهره كي تتم مصالحة هؤلاء الطلاب مع القراءة الفردية، إنه الخوف المتعلق بالمدّة.

المقصود هنا مدّة القراءة، حيث يُنظر إلى الكتاب وكأنه من المستحيل إنهاؤه!

عندما رأينا رواية **العطر** تخرج من خرج الأستاذ اعتقدنا في البداية أنه جبل جليدي! (نبيّن هنا أن الأستاذ اختار - عن قصد - الطبعة الدارجة الصادرة عن دار نشر فايار، وهي طبعة بحروف كبيرة وبمسافات كبيرة بين السطور وبهوامش عريضة، أي كتاب ضخم في نظر هؤلاء العصيين على القراءة، كتاب يعِدُ بعذاب لا نهاية له).

لكن ها هو قد بدأ يقرأه، وبدأ الجبل الجليدي يذوب بين يديه!

صار الزمن مختلفاً، وأخذت الدقائق تركض كثوانٍ وما إن قُرئت أربعون صفحة حتى كانت الساعة قد انتهت.

الأستاذ يقرأ أربعين صفحة في الساعة.

أي ٤٠٠ صفحة في عشر ساعات. يمكنه إذاً، بمعدل خمس ساعات مخصصة للفرنسية في الأسبوع، أن يقرأ ٢٤٠٠ صفحة في الفصل! ٧٢٠٠ صفحة في العام الدراسي! أي سبع روايات تبلغ كل منها ١٠٠٠ صفحة! كل ذلك في خمس ساعات قراءة أسبوعية فقط!

إنه اكتشاف رائع يغيّر كل شيء! إن الكتاب، بعد كل حساب، يُقرأ بسرعة: بساعة قراءة واحدة في الأسبوع أنهي رواية من ٢٨٠ صفحة! ويمكنني قراءتها في ثلاثة أيام فقط إذا خصصت للقراءة أكثر من ساعتين بقليل! ٢٨٠ صفحة

في ثلاثة أيام! أي ٥٦٠ صفحة في ستة أيام عمل. وأما إذا كان الكتاب فعلاً "حلو" (كتاب **ذهب مع الريح**، يا أستاذ، فعلاً كتاب حلو) وإذا منحنا أنفسنا أربع ساعات إضافية يوم الأحد (وهذا ممكن تماماً، ففي يوم الأحد تكون الضاحية التي يسكن فيها أبو تسريحة موزة وجزمة سانتياغ في حالة قيلولة، أما أبو ثياب برلنغتون فيأخذه أهله معهم إلى الريف حيث يقتله الملل) فإننا نحصد ١٦٠ صفحة إضافية، وهكذا يكون المجموع ٧٢٠ صفحة!

أو ٥٤٠ صفحة إذا قرأت بسرعة ثلاثين في الساعة، وهي سرعة وسطية مقبولة جداً.

و ٣٦٠ صفحة إذا "تدرّجت" بسرعة عشرين في الساعة.

– ٣٦٠ صفحة في الأسبوع، وأنتَ؟

عدّوا صفحاتكم أيها الأطفال، عدّوها... فالروائيون يفعلون نفس الشيء. لو أنكم ترونهم عندما يصلون إلى الصفحة ١٠٠! إن الصفحة مئة هي "رأس هورن" بالنسبة للروائي! ما إن يصل إليها حتى يحتفل بذلك بفتح زجاجة شراب في داخله، ويرقص بفرح بينه وبين نفسه، ويحمحم كحصان الفلاحة، ويلاّاااا، عليهم...، يغطس في محبرته ليبدأ بالصفحة ١٠١. (إنها صورة قويّة صورة حصان الحراثة الغاطس في محبرة!).

عدّوا صفحاتكم... فالقارئ يبدأ أولاً بالاندهاش الممزوج بالإعجاب أمام عدد الصفحات المقروءة، ثم تأتي اللحظة التي يرتعب فيها من قلة عدد الصفحات الباقية للقراءة. لم تبقَ سوى ٥٠ صفحة! سوف ترون... لا شيء ألذّ من هذا الأسف: **الحرب والسلم** مجلدان ضخمان... ولم تبقَ سوى ٥٠ صفحة للقراءة.

فنبطئ، ونبطئ، لكن دون جدوى...

لقد تزوجت ناتاشا أخيراً من بيير بيزوخوف، وهذه هي النهاية.

٤٩

لكن أين سأقتطع ساعة القراءة اليومية هذه في برنامج عملي اليومي؟ أمن حصة الأصحاب؟ أم التلفزيون؟ أم التنقلات؟ أم السهرات العائلية؟ أم الواجبات؟

أين سأجد "الوقت للقراءة"؟

مشكلة كبيرة.

ولكنها في الحقيقة ليست بالمشكلة.

فعندما نطرح مسألة وقت القراءة، فمعنى ذلك أن الرغبة في القراءة غير موجودة. لأنّ، إذا تمعنّا في الأمر، "لا أحد لديه الوقت للقراءة"، لا الصغار، ولا المراهقون، ولا الكبار. فالحياة عائق دائم أمام القراءة.

– القراءة؟ أتمنى ذلك، لكن الشغل، والأولاد، والمنزل، لم يعد لدي الوقت...

– كم أحسدك لأن لديك الوقت للقراءة!

ولماذا هذه المرأة التي تعمل، وتتسوق، وتربّي أطفالها، وتقود سيارتها، وتعشق ثلاثة رجال، وتتردد على طبيب الأسنان، وسترحّل الأسبوع المقبل، لماذا هذه المرأة تجد وقتاً للقراءة، بعكس هذا الأعزب العفيف الذي يعيش من مردود أمواله؟

إن وقت القراءة وقت مختلَس دائماً! (كوقت الكتابة ووقت العشق، على فكرة).

مختلَس من ماذا؟

لنقل إنه مختلس من واجب العيش.

وهذا هو، بلا شك، السبب الذي يجعل من المترو – وهو رمز لهذا

الواجب – أكبر مكتبة في العالم.

زمن القراءة، كزمن العشق، يزيد من طول زمن العيش.

إن كان علينا أن نتعامل مع الحب من وجهة نظر برنامج عملنا اليومي، من كان سيخاطر ويعشق؟ من يملك الوقت ليكون عاشقاً؟ ومع ذلك، هل رأينا يوماً مُحبّاً لا يجد الوقت للعشق؟

لم يكن لدي أبداً الوقت للقراءة، لكن أبداً لم يستطع شيء ما أن يمنعني من إنهاء رواية أحببتها.

لا تخضع القراءة لتنظيم الوقت الاجتماعي، بل هي، كالحب، أسلوب حياة.

ولا يكمن السؤال في معرفة إن كان لدي الوقت للقراءة أم لا (وهو في الحقيقة وقت لن يمنحني إياه أحد)، بل في معرفة إن كنت سأمنح نفسي أم لا سعادةَ أن أكون قارئاً.

نقاش يلخّصه أبو تسريحة موزة وجزمة سانتياغ على شكل شعار رهيب:

– وقت القراءة؟ إنه في جيبي!

وعندما رآه أبو ثياب ماركة برلنغتون يخرج من جيبه كتاب **ملاحم خريفية** لجيم هاريسون (طبعة ١٠/١٨) وافق على رأيه قائلاً بتأمل:

– نعم... عندما نقوم بشراء سترة، أهم شيء هو أن تكون جيوبها على المقاس المطلوب!

٥٠

في لغة الآرغو[1] نقول "ربط" بدل قرأ.
وفي المعنى المصوّر يسمى الكتاب الضخم "بلوكة".
يكفي أن تفك الأربطة حتى تتحول البلوكة إلى غيمة.

---

١ الآرغو هي من اللغات العامية، وهي لغة خاصة بجماعة معينة كشباب الضواحي، أو عمال مهنة ما... إلخ. (م)

٥١

هناك شرط وحيد للتصالح مع القراءة: ألا نطلب شيئاً بالمقابل. أي شيء، إطلاقاً. ألا نقيم أي سورٍ معرفي مسبق حول الكتاب. ألا نطرح أي سؤال. ألا نعطي أية وظيفة. ألا نضيف ولو كلمة واحدة إلى كلمات الكتاب. لا أحكام قيمة، ولا شرح مفردات، ولا تحليل نص، ولا إشارات تتعلق بالسيرة الذاتية... أن نمنع أنفسنا من الكلام مطلقاً عن الكتاب.

قراءة – هدية.

قراءة وانتظار.

الفضول لا يُفرَض، بل يتم إيقاظه.

القراءة، القراءة، والثقة بالعيون التي تتفتح، وبالوجوه التي تفرح، وبالسؤال الذي يرى النور، والذي سيجرّ وراءه سؤالاً آخر.

إن كان التربوي القابع في داخلي يستاء من عدم "تقديم العمل ضمن ظرفه"، فإن من الواجب إقناع هذا التربوي بأن الظرف الوحيد الذي له قيمة، في الوقت الحالي، هو "ظرف هذا الصف".

دروب المعرفة لا تقود إلى هذا الصف، بل منه تنطلق!

حتى الآن، أقرأ روايات لمستمعين "يعتقدون أنهم لا يحبون القراءة". وبالتالي لا يمكن تعليمهم أي شيء جدّي إن لم أتوصل إلى إزالة هذا الوهم، إن لم أقم بعملي كوسيط.

وعندما يتصالح هؤلاء المراهقون مع الكتب سيقومون بكل رحابة صدر بقطع الطريق الذي يقود من الرواية إلى كاتبها، ومن الكاتب إلى عصره، ومن القصة المقروءة إلى معانيها المتعددة.

المهم أن نكون جاهزين.
وأن ننتظر بثبات هجوم الأسئلة.

- هل ستيفنسون إنكليزي؟
- لا، اسكتلندي.
- في أي عصر؟
- القرن ١٩، خلال حكم الملكة فيكتوريا.
- يُقال إنها حكمت لوقت طويل، هذه الملكة...
- ٦٤ سنة، من ١٨٣٧ إلى ١٩٠١.
- ٦٤ سنة!
- كانت تحكم منذ ١٣ سنة عندما ولد ستيفنسون، وقد مات قبلها بسبع سنوات. عمرك الآن ١٥ سنة، تصعد هي على العرش، وعندما ينتهي حكمها سيكون عمرك ٧٩ سنة! (في زمن كان فيه متوسط عمر الإنسان حوالى ثلاثين سنة). وقد كانت ملكة صارمة.
- ألهذا وُلدَ هايد من كابوس!

جاءت هذه الملاحظة من الأرملة الصقلية، مما أثار دهشة عارمة عند برلنغتون:

- كيف عرفت ذلك؟

أجابت الأرملة دون توضيح:

- استفسرت...

ثم أضافت راسمةً ابتسامة خفية:

- ويمكنني حتى أن أقول لك إنه كان كابوساً سعيداً. إذ إن ستيفنسون، عندما استيقظ من نومه، دخل مكتبه وأغلق على نفسه الباب وحرّر في يومين نسخة أولى من الكتاب. وقد قامت زوجته بإجباره على إحراقها فوراً لشدة ما كان يشعر بنفسه سعيداً في تقمّص شخصية هايد وهو يسرق ويغتصب ويذبح كل من يتحرك أمامه! ولم تكن الملكة الشديدة لتقبل بذلك. لذلك قام باختراع شخصية جِكيل.

٥٢

لكن القراءة بصوت عالٍ لا تكفي، يجب أن "نحكي" أيضاً، أن نقدّم كنوزاً، أن ننشر كنوزاً على شاطئ الجهل. اسمعوا، اسمعوا، وانظروا كم "القصة" جميلة!

أفضل طريقة لفتح شهية القارئ هي أن نجعله يشتمّ رائحة وليمة قراءة عظيمةً.

وتقول الطالبة المليئة بالإعجاب عن جورج بيرّوس:

– لم يكن يكتفي بالقراءة، بل كان يحكي لنا! كان يحكي لنا **دون كيشوت** و**مدام بوفاري!** مقاطع كبيرة من الذكاء النقدي، لكنه كان يقدمها لنا أولاً وكأنها مجرد قصص. وكان سانشو يتحول، في فمه، إلى قربة مليئة بالحياة، و"الفارس ذو الوجه الحزين" يصير حزمة عظام كبيرة مسلّحة بقناعات مؤلمة جداً! ولم تكن إيما بوفاري، كما كان يروي لنا قصتها، مجرد غبية يتآكلها "غبار المكتبات القديمة" بل مخزن طاقة عظيمة. ومن خلال صوت بيروس كنا نسمع فلوبير يهزأ لهذه الخسارة "الع...ظ...ي...م...ة".

يا أعزائي أمناء المكتبات، أنتم يا حرّاس المعبد، شيء سعيد أن تجد كل كتب العالم مكانها في ذاكرتكم المنظمة بدقة (فلولاكم كيف كنت سأهتدي، أنا صاحب الذاكرة السيئة كأرض غير مفلوحة؟)، وشيء رائع أن تكونوا على علم بكل المواضيع المرتبة على الرفوف المحيطة بكم... لكن سيكون من المستحسن أيضاً أن نسمعكم "تحكون" رواياتكم المفضّلة لزوار المكتبة التائهين في غابة القراءات الممكنة... كم سيكون الأمر جميلاً لو أنكم تتفضّلون وتقصّون عليهم أفضل ذكريات قراءاتكم! كونوا حكواتيين سحرة

وستقفز عندها الكتب من رفوفها لتحطّ في أيدي القراء.

ما أسهل أن نحكي رواية. ثلاث كلمات تكفي أحياناً.

ذكريات طفولة ذاتَ صيف. في ساعة القيلولة. الأخ الأكبر ممدد على بطنه فوق سريره، وذقنه بين راحتي يديه، غارق في "كتاب جيب" ضخم. والأخ الأصغر قرد مضطرب لا تسعه الأرض:

"شو عم تقرا؟".

الكبير: **الرياح الموسمية**.

الصغير: حلو؟

الكبير: كتير!

الصغير: شو عم يحكي؟

الكبير: قصة زلمي، بالأول كان يشرب ويسكي، وبالأخير صار يشرب مي كتير!

لم أكن بحاجة إلى أكثر من هذا كي أمضي نهاية ذلك الصيف غارقاً حتى الصميم في رواية **الرياح الموسمية** للسيد لويس برومفيلد، وقد أخذتها من أخي الذي لم ينهها أبداً.

٥٣

سوسكند، ستيفنسون، ماركيز، دوستويفسكي، فانت، شيستر هيمز، لاجرلوف، كالفينو، كل هذه الروايات التي قُرئت عشوائياً وبدون مقابل، كل هذه القصص المحكية، كل وليمة القراءة الفوضوية هذه، من أجل متعة القراءة، كل هذا جميل... لكن المنهاج الدراسي، يا جماعة، "المنهاج"! الأسابيع تمرّ ولم نبدأ المنهاج بعد. الرعب من السنة التي تنزلق من بين يدينا، شبح المنهاج الذي لم ينته...

لا تخافوا، سنقوم بـ"معالجة" المنهاج، كما يقال عن تلك الأشجار التي تعطي فاكهة حسب المقاس المطلوب.

بعكس ما كان يتصور أبو موزة وأبو جزمة سانتياغ، لن يمضي المعلم كل السنة في القراءة. للأسف! للأسف! لماذا استيقظت متعة القراءة الصامتة والمنفردة بهذه السرعة؟ فما يكاد المعلم يبدأ قراءة رواية بصوت عالٍ حتى نسرع إلى المكتبة لنعرف "البقية" قبل الدرس التالي. وما يكاد يحكي لنا قصتين أو ثلاث (لا يا أستاذ.. لا، لا تروي لنا النهاية!) حتى نلتهم الكتب التي أخذت منها هذه القصص.

(من جهة أخرى، لن يُغرَّ الأستاذ بهذا الإجماع. لا، لا، فهو لم يحوّل، بضربة عصا سحرية، جميع الطلاب العصيين على القراءة، إلى قرّاء. ففي بداية هذا العام الدراسي من المؤكد أن الجميع يقرأ، بعد أن قهروا خوفهم. يقرأون بدافع من الحماسة وروح التنافس، وربما أيضاً، شئنا أم أبينا، لإرضاء المعلم... هذا المعلّم الذي يجب عليه من جهة أخرى ألاّ يغترّ بهذه الحماسة... إذ لا شيء يفتر أسرع من الحماسة، وهو غالباً ما عرف هذه التجربة! لكن، في

الوقت الحالي، هناك إجماع على القراءة، بتأثير هذا الخليط المختلف في كل مرة، هذا الخليط الذي يجعل صفاً يشعر بالثقة يتصرف كما لو كان فرداً واحداً، في نفس الوقت الذي يحافظ فيه كل واحد من طلابه الثلاثين على فرديته المستقلة.

هذا لا يعني أن كلاً من هؤلاء الطلاب سيصبح "محباً للقراءة" عندما يكبر. إذ ربما حلّت متع أخرى محل متعة النص. لكن على الأقل، خلال هذه الأسابيع الأولى من العام الدراسي، وبما أن فعل القراءة – "فعل القراءة" الشهير! – لم يعد يخيف أحداً، فإن الجميع يقرأ، وأحياناً بسرعة كبيرة).

وما الذي يميّز هذه الروايات إذاً حتى تُقرأ بهذه السرعة؟ أهي سهلة القراءة؟ وما معنى "سهلة القراءة"؟ وهل **ملحمة غوستا برلنغ** سهلة القراءة؟ وكذلك **الجريمة والعقاب**؟ أهي أسهل من **الغريب** أو من **الأحمر والأسود**؟ لا، المشترك بين هذه الروايات هو أنها "غير مقررة في المنهاج الدراسي"، وهي ميزة لا تُثمّن في نظر أصدقاء الأرملة الصقلّية الصغار، الجاهزين في كل لحظة لوصف أي عمل تفرضه وزارة التربية بهدف زيادة ثقافتهم بشكل مدروس بأنه عمل "ثقيل الظل". يا "للمنهاج" المسكين. طبعاً ليس الذنب إطلاقاً ذنب المنهاج. (رابليه، مونتيني، لا برويير، مونتسكيو، فرلين، فلوبير، كامو، "ثقيلو ظل"؟ لا، ما هذا المزاح...). إن "الخوف" هو السبب الوحيد الذي يجعل نصوص المنهاج الدراسي "ثقيلة الظل". الخوف من عدم الفهم، الخوف من الإجابة الخاطئة، الخوف من الآخر الواقف خلف النص، الخوف من اللغة الفرنسية التي يُنظر إليها كـ"مادة" مستعصية؛ وكل هذا يجعل السطور مشوّشة ويُغرق المعنى في قرارة الجُمل.

وقد كان أبو ثياب بورلنغتون وأبو سترة بيرفيكتو أول المندهشين عندما أعلن لهم الأستاذ أن رواية **فخ القلوب** لسلنجر والتي تذوقوها لتوهم بمتعة كبيرة تعذّب في هذه الفترة بالذات زملاءهم الأميركيين لسبب وحيد هو أنها مفروضة عليهم في المنهاج، بحيث أن من الممكن أن يكون هناك بيرفيكتو

تكساسي يقرأ خفيةً مدام بوفاري بينما أستاذه يحاول عبثاً أن يدفعه إلى قراءة رواية سلنجر!

هنا نفتح قوسين لتعترض الأرملة الصقلية:

- أستاذ، لا يوجد تكساسي يقرأ.

- فعلاً؟ من أين جئت بهذا؟

- من مسلسل "دالاس". هل رأيت يوماً شخصية واحدة من شخصيات "دالاس" وفي يدها كتاب؟

(لنغلق القوسين).

باختصار، يبدأ الطلاب، وهم يحلقون فوق كل هذه القراءات ويسافرون دون جواز سفر عبر الأعمال الأجنبية (خاصةً الأعمال الأجنبية، إذ أن هؤلاء الإنكليز والإيطاليين والروس والأميركان يتمتعون بلباقة البقاء بعيداً عن "المنهاج")، وقد تصالحوا مع "ما يستأهل القراءة"، بالاقتراب على شكل دوائر وحيدة المركز من الأعمال التي "يجب قراءتها"، وقريباً ما يغطسون فيها، كما لو أن شيئاً لم يكن، لسبب وحيد وهو أن **أميرة كليف**[1] صارت رواية "كغيرها"، رواية جميلة كغيرها... (بل وأجمل من كل الروايات الأخرى، هذه الرواية التي تحكي قصة حب يحميه الحب، وهي قصة تَألفُها جيداً مراهقتهم المعاصرة، هذه المراهقة التي نتهمها بتسرع ودون تدقيق بأنها تخضع لقدر المجتمع الاستهلاكي).

> عزيزتي "السيدة لافاييت"،
>
> إن كان الأمر يعنيك، فإني أعلمك بأن أحد صفوف الصف العاشر، وهو صف معروف عنه أنه "قليل الاهتمام بالآداب" و"مشاغب" بقدر لا بأس به، قد رفع روايتك **أميرة كليف** إلى قمة ما قرأ من روايات في ذلك العام.

---

١ رواية فرنسية من القرن السابع عشر كتبتها ماري مادلين دو لافييت، المعروفة بلقب "السيدة لافييت". (م)

ستتم إذاً معالجة المنهاج، وستُدرَّس، حسب الأصول (وبطرق، يا الله كم ستكون منهجية!)، تقنيات الإنشاء وتحليل النصوص والشرح والتلخيص والنقاش، وكل هذه الآليات المجرَّبة بإتقان بهدف أن نبيّن للسلطات المخوَّلة يوم الامتحان أننا لم نكتفِ بالقراءة من أجل التسلية، بل أننا فهمنا، أيضاً، وأننا قمنا بـ"الجهد اللازم للفهم"، حسب التعبير المقدّس.

والسؤال الذي يقوم على معرفة ماذا "فهمنا" (السؤال الأخير) هو سؤال لا تنقصه الفائدة. فهمنا النص؟ نعم، نعم، طبعاً... لكننا فهمنا خاصةً، بعد أن تصالحنا مع القراءة وبعد أن فقد النص مكانته "كلغز" معيق، أن جهدنا لاستيعاب النص أصبح متعة، وأن مفهوما الجهد والمتعة، بعد قهر الخوف من عدم الفهم، يتضافران ويعملان كل واحد في صالح الآخر، وهنا يصبح جهدنا ضمانة لزيادة متعتنا، ومتعة الفهم تغرقنا حتى الثمالة في اضطرام عزلة الجهد.

ولقد فهمنا شيئاً آخر أيضاً. لقد فهمنا، مع شيء من التسلية، "آلية" المسألة، فهمنا الفن وكيفية "التكلم عنه"، وكيفية عرض ما نعرف بشكل جيد في سوق الامتحانات والمسابقات. لا فائدة من إخفاء ذلك، فهو أحد أهداف العملية. فـ"الفهم"، في قاموس الامتحانات والمسابقات، يعني فهم ما هو مُنتظر منا. والنص "المفهوم جيداً" هو نص تتم المفاوضة عليه بذكاء. والمتقدم الشاب للامتحان يبحث عن النتيجة الرابحة لهذه المفاوضة عندما يلقي نظرة ناعمة على وجه المُمتحِن بعد أن قدّم له شرحاً ذكياً - لكن ليس جريئاً زيادة عن اللزوم - لبيتٍ من الشعر معروف بغموضه. ("يبدو الممتحن مبسوطاً، إذاً فلنتابع على هذا الطريق الذي يقود مباشرةً إلى علامة جيدة").

من وجهة النظر هذه، يتعلق نجاح مرحلة الدراسة الأدبية بالاستراتيجية المتّبعة بقدر ما يتعلق بفهم جيد للنصوص. و"الطالب السيئ"، في حالات كثيرة جداً، ليس إلا طالباً لا يملك بكل أسف أية مقدرات تكتيكية. فما يحدث هو أنه، لخوفه من عدم تقديم ما ننتظر منه، سرعان ما يخلط بين ما هو مدرسي وما هو ثقافي. وبما أنه من المهمّشين في المدرسة فسرعان

ما يظن أنه ممّن تنبذهم القراءة. وهو يتصور أن "القراءة" بحد ذاتها فعل نخبوي، ويحرم نفسه من الكتب طيلة حياته لأنه لم يعرف أن يتكلم عن الكتب عندما كان يُطلب منه ذلك.

وهذا يعني أنه بقي هناك أمر آخر يجب "فهمه".

٥٤

بقي أن "نفهم" أن الكتب لم تُكتب حتى يقوم ابني أو ابنتي أو الشباب بشرحها، بل لكي يقوموا، "إن رغبوا في ذلك"، بقراءتها.

فمعرفتنا ودراستنا ومستقبلنا المهني وحياتنا الاجتماعية شيء، وحميميتنا كقرّاء وثقافتنا شيء آخر. ومن الحسن تماماً أن نصنّع خريجي بكالوريات وليسانسات وحاصلين على شهادة الأستاذية وشهادة المدرسة العليا للإدارة، فالمجتمع يطلبهم، وهذا أمر لا نقاش فيه... لكن الأمر الأكثر "جوهريةً" هو أن نوقظ اهتمامهم بكل الصفحات، صفحات كل الكتب.

على طول سنوات الدارسة نفرض على التلاميذ، من الابتدائي إلى الثانوي، واجب الشرح والتعليق. وترعبهم الطريقة المتّبعة في ذلك لدرجة أنها تحرم العدد الأكبر منهم من رفقة الكتاب. ونهاية قرننا هذا تزيد الطين بلّة، فتمرين "الشرح والتعليق" يسودها تماماً لدرجة أنه، في أغلب الأحيان، ينسينا الكتاب المطلوب شرحه. وهذا الصخب المعمي يحمل اسماً حُرّف معناه، وهذا الاسم هو: التواصل...

فالتكلم إلى مراهقين عن كتاب والطلب منهم أن يتكلموا بدورهم عنه يمكن أن يكون "مفيداً جداً، لكنه ليس غاية في حد ذاته. الغاية هي الكتاب؛ أن يكون الكتاب بين أيديهم. وأول حق من حقوقهم، كقرّاء، هو أن يصمتوا.

٥٥

في أولى أيام العام الدراسي يحدث لي أحياناً أن أطلب من تلامذتي أن يصفوا لي مكتبة. لا أقصد مكتبة عامة، لا، أقصد الأثاث الذي تُرتَّب فيه الكتب. فيصفون لي جداراً؛ جرفاً صخرياً من المعرفة، مرتّباً بدقة شديدة، عصيّاً على الاختراق، جداراً لا يمكننا إلا الاصطدام به والارتداد.

- والقارئ؟ صفوا لي قارئاً.
- قارئاً حقيقياً؟
- كما تريدون، مع أنني لا أعرف ماذا تقصدون بقارئ حقيقي.

أكثرهم "احتراماً" يصفون لي "الآب" بذاته، على شكل ناسك من عهد ما قبل الطوفان، متربّع منذ الأزل على جبل من الكتب التي امتصّ عصارتها حتى فهم علّة كل شيء. ويرسم لي آخرون صورة لإنسان انطوائي تماماً، جدّ مستغرق في الكتب لدرجة أنه يصطدم بكل أبواب الحياة. ويقوم آخرون أيضاً بعمل رسم بالمقلوب، أي بتعداد كل المواصفات غير الموجودة عند القارئ: ليس رياضياً، لا يحب التمتع، لا يمزح، لا يحب الأكل ولا الثياب، ولا السيارات، ولا التلفزيون، ولا الموسيقا، ولا الأصدقاء... وأخيراً يقوم آخرون، أكثر "استراتيجيةً" من زملائهم، أمام مدرّسهم، بنحت تمثال أكاديمي للقارئ الواعي للوسائل التي تضعها الكتب تحت تصرفه كي يزيد من معرفته ومن وضوح رؤيته. ويخلط البعض كل هذه المستويات، لكن لا يقوم أيٌّ منهم، ولا واحد أبداً، بوصف نفسه، ولا بوصف أحد أفراد عائلته أو أيّاً من هؤلاء القراء الذين يصادفهم يومياً في المترو.

وعندما أطلب منهم أن يصفوا لي "كتاباً" فإنهم يصفون شيئاً عجيباً كأنه

آلة طائرة قادمة من الفضاء: شيئاً غريباً تماماً، من الصعب جداً وصفه بسبب البساطة المقلقة لشكله والتعدد الكبير لوظائفه، "جسداً غريباً" محمّلاً بجميع القدرات وبجميع الأخطار أيضاً، شيئاً مقدساً، مدللاً ومحترماً، موضوعاً بحركات قدسية على رفوف مكتبة لا عيب فيها، لكي تعبده طائفة مريدين ذوي نظرات غامضة.

الغرال المقدس.[1]

طيب.

لنحاول أن ننزع بعضاً من هذه النظرة القدسية إلى الكتاب والتي حشرناها في رؤوسهم، وذلك بتقديم وصف أكثر "واقعية" للطريقة التي نتعامل بها، نحن المحبين للقراءة، مع الكتاب.

١ الغرال (تلفظ الغين كالجيم المصرية) هو كأس أو كوب تقول الأساطير المسيحية إنه استخدم في "العشاء الأخير" ثم في جمع الدم السائل من جروح المسيح وهو على الصليب. وأصبح في الأدب الغربي "البحث عن الغرال" مرادفاً للبحث عن الخلاص. (م)

٥٦

قليلة هي الأشياء التي توقظ الشعور بالملكية المطلقة كما يفعل الكتاب. عندما تقع الكتب في أيدينا فإنها تصبح عبيداً لنا – نعم، عبيداً، لأنهم من مادة حية، لكنهم عبيد لا يفكر أحد بإعتاقهم، لأنهم من أوراق ميتة. وهم بهذا يخضعون لأسوأ أنواع المعاملة، الناتجة عن حب شديد أو عن غضب عارم.

فهذا الكتاب ثُنيت صفحاته (آخ! أي جرح أشعر به كل مرة أرى فيها صفحات الكتاب مثنيّة! "لكني أقوم بذلك حتى أعرف أين وصلللللللت!") ووضع فنجان القهوة على غلاف ذاك الكتاب مما يتسبّب بعدة هالات... إضافةً إلى الآثار النافرة لبقايا الطعام، والبقع التي سبّبها المرهم الواقي من الشمس... وهناك في عدة أماكن آثار إبهامي، إبهامي الذي أحشو به غليوني أثناء القراءة... وهذا المجلد من مجموعة "البلياد" الذي يجفّ «وهو في حالة سيئة على مشعّ التدفأة بعد أن سقط في ماء الحمام ("حمامكِ أنت يا عزيزتي لكن دوشي أنا") والهوامش المشحبرة بالحواشي التي لا تكاد تُرى لحسن الحظ، والمقاطع المشار إليها بقلم تلوين مشعّ، والكتاب الذي صار معاقاً بشكل نهائي كونه بقي لمدة أسبوع كامل مفتوحاً ومكبّاً على وجهه، والكتاب الآخر الذي ندّعي حمايته بغلاف بلاستيكي مقرف وشفاف ذي انعكاسات بترولية اللون... والسرير المختفي تحت جبل من الكتب المبعثرة كعصافير ميتة... وكومة الكتب من مجموعة "فوليو" وقد أُسلمت إلى عفن السقيفة... وكتب الأطفال التعيسة التي لم يعد يقرأها أحد، وقد نُفيت إلى بيت الاستراحة

الريفي الذي لم يعد يزوره أحد... وكل تلك الكتب التي تباع بأسعار بخسة على الأرصفة لتجّار العبيد...

إننا نذيق الكتبَ الأمرّين. ولكن لا تحزننا إلا الطريقة التي يعامل "الآخرون" بها الكتب...

منذ وقت ليس بالبعيد رأيت بأم عيني قارئة تلقي برواية ضخمة من نافذة سيارة تسير بسرعة كبيرة، والسبب هو أنها دفعت في سبيلها ثمناً مرتفعاً جداً (لكثرة ما امتدحها نقاد متمكنون جداً) ولكن خاب ظنها بها كثيراً. أما جد الروائي تونينو بِناكيستا فقد وصل به الأمر إلى "تدخين" أفلاطون! كان سجين حرب في مكان ما من ألبانيا، وكانت معه بقية من تبغ في زاوية من جيبه، ونسخة من **كراتيل**[1] (من يفهم ما الذي كانت تفعله هذه النسخة هنا؟)، وعود كبريت... و"تشخت"! طريقة جديدة في الحوار مع سقراط... بواسطة إشارات دخانية.

أثر آخر، أكثر تراجيدية، من آثار الحرب ذاتها: ألبيرتو مورافيا وإلسا مورانت، وقد أُجبرا على الالتجاء لعدة أشهر في كوخ راعٍ. لم يستطيعا أن ينقذا سوى كتابين: **الكتاب المقدّس والإخوة كرامازوف**. هنا وقعت مشكلة خيار معقدة: أي هذين الصرحين سيستخدمان كورق تواليت؟ ومهما كان الخيار موجعاً فهو خيار. واختارا... والألم يعتصرهما.

ومهما بلغت قدسية الحديث الذي يدور حول الكتب، فإنه لم يولد ذاك الذي سيمنع بيبي كارفالو، الشخصية المفضلة للإسباني مانويل فاسكيز مونتالبان، من أن يشعل كل مساء ناراً كبيرة مستخدماً في ذلك صفحات كتبه المفضّلة التي قرأها.

إنه ثمن الحب، إتاوة الحميمية. فما إن ننتهي من قراءة كتاب حتى يصبح "لنا"، تماماً كما يقول الأطفال: هذا "كتابي أنا"... إنه جزء لا يتجزأ مني. وربما كان هذا هو الأمر الذي بسببه لا نعيد إلا بصعوبة كبيرة الكتب التي تُعار لنا. إنها ليست سرقة تماماً... (لا، لا، فنحن لسنا بالسارقين، لا...)

١ حوار لأفلاطون يشارك فيه سقراط وآخرون، وموضوعه اللغة والإشارات اللغوية. (م)

لنقل إنه انزلاق ملكية، أو بالأحرى، انتقال مادي: ما كان ملكاً للآخر تحت ناظره يصبح لي بينما تلتهمه عيني. وإذا أحببت ما قرأت فإنني أجد صعوبة في ردّه.

لا أتكلم هنا إلا عن الطريقة التي نتعامل بها، نحن الأفراد، مع الكتب. لكن المشتغلين في حقل الكتب لا يعاملونها بأفضل منا. فهم يقصّون الورق قريباً جداً من الكلمات لجعل كتب الجيب مربحة أكثر (فيأتي النص دون هامش وبحروف قزّمها الاختناق)، وينفخون هذه الرواية الصغيرة، كما تُنفخ القربة، لإقناع القارئ بأنه حصل على ما يستحق مقابل ما دفعه من نقود (فيأتي النص ضائعاً بين مساحات بيضاء كبيرة)، ويضعون أغلفة "شايفة حالها" تصرخ ألوانها وعناوينها الضخمة على بعد مئة وخمسين متراً: "أقرأتني؟ أقرأتني؟". ويصنعون نسخ "نوادٍ" من ورق اسفنجي وغلاف كرتوني مزيّن برسوم مضنية، ويدعون عمل نسَخ "دولوكس" بحجة استخدام جلد زائف مزيّن بإفراط بزخارف ذهبية...

ويُدَلّل الكتاب، منتج المجتمع الاستهلاكي جداً، تقريباً كما يدلَّل فروج معلوف على الهرمونات، وبأقل بكثير مما يدلَّل صاروخ نووي. وعلى فكرة، ليست المقارنة مع الفروج المغذى بالهرمونات وذي النمو اللحظي مجرد مقارنة ساذجة إن طبّقناها على ملايين الكتب "الظرفية" التي تُكتب في أسبوع بحجة أنه، في هذا الأسبوع بالذات، فطست الملكة أو فقد الرئيس منصبه.

وبالتالي، إذا نظرنا إلى الكتاب من هذا المنظور فإنه ليس سوى مادة استهلاكية، لا أكثر ولا أقل، شيء عابر: فهو سرعان ما يُسحق إن لم "يمشِ سوقه"، وغالباً ما يموت دون أن يُقرأ.

أما بالنسبة للطريقة التي تتعامل بها الجامعة ذاتها مع الكتب، فقد يكون من المناسب أن نسأل المؤلفين أنفسهم رأيهم في ذلك. هاكم ما كتبته فلانري أوكنور عندما علمت أن طلاباً يدرسون عملها:

إن كان المبدأ الذي يعتمده الأساتذة اليوم يقوم على اعتبار العمل

الأدبي وكأنه موضوع بحث يقبل أي جواب، شرط أن يكون الجواب مبهماً، فإني أخشى ألاّ يكتشف الطلاب أبداً متعة قراءة الرواية...[1]

---

١ فلانري أوكنور، **عادة أن نكون**، (منشورات غاليمار)، ترجمة غابرييل رولان.

٥٧

هذا فيما يخصّ "الكتاب".

فلننتقل الآن إلى القارئ.

لأن هناك ما هو أكثر دلالة من طرق معاملتنا للكتب، إنها "طرق قراءتنا لها".

ففيما يخصّ القراءة نقوم نحن الآخرون، نحن "القراء"، بمنح أنفسنا كل الحقوق، وأولها الحقوق التي نمنعها عن الشباب الذين ندّعي أننا نريد أن نجعلهم يحبون القراءة.

١) الحق في عدم القراءة.
٢) الحق في القفز عن الصفحات.
٣) الحق في عدم إنهاء كتاب.
٤) الحق في إعادة القراءة.
٥) الحق في قراءة أي شيء.
٦) الحق في البوفارية[١].
٧) الحق في القراءة في أي مكان.
٨) الحق في أن نقطف من هنا وهناك.
٩) الحق في القراءة بصوت عالٍ.
١٠) الحق في أن نصمت.

---

١ نسبة إلى شخصية إيما بوفاري في رواية فلوبير. والمقصود بها حالة عدم الرضا التي تدفع بالشخصية إلى البحث عن تعويضات حلمية. (م)

سأتوقف بشكل اعتباطي عند الرقم ١٠، أولاً لأنه "أصفى حساب"، وثانياً لأنه عدد الوصايا الشهيرة ومن الطريف أن نراه، ولو لمرة، يستخدم في لائحة مسموحات.

لأنه إن كنا نريد أن يقرأ ابني، وابنتي، والشباب، فإن من العادل أن نعطيهم الحقوق التي نمنحها لأنفسنا.

الفصل الرابع

ما الذي سيقرأه الآخرون؟[1]
(أو حقوق القارئ الدائمة)

١ تلاعب بعبارة "ما الذي سيقوله الآخرون؟". (م)

١

الحق في عدم القراءة

ككل لائحة "حقوق" تحترم نفسها، فإن لائحة حقوق القراءة يجب أن تبدأ بالحق في عدم استخدام هذا الحق – أقصد الحق في عدم القراءة – وإلا فهي ليست بلائحة حقوق بل فخٍّ خبيث.

كبداية، يمكننا القول إن أغلب القراء يمنحون أنفسهم، يومياً، الحق في عدم القراءة. وحتى لو عانت شهرتنا من ذلك، فبين كتاب جيد وفيلم تلفزيوني سيئ، الفيلم هو الذي يكسب في أغلب الأحيان، بأكثر مما نتمنى أن نعترف به. ثم إننا لا نقرأ بشكل متواصل. إذ غالباً ما تتناوب فترات قراءاتنا مع فترات انقطاع طويلة، مجرد رؤية كتاب خلالها تثير فينا أبخرة عسر الهضم.

لكن الأهم من ذلك يكمن في مكان آخر.

فنحن محاطون بعدد كبير من الأشخاص المحترمين تماماً، والحاصلين أحياناً على شهادات عالية، ومنهم من هو "رفيع المستوى" – وحتى أن بعضهم يملك مكتبات رائعة جداً – ولكنهم لا يقرأون، أو نادراً ما يقرأون لدرجة أننا لا نفكر، حتى مجرد التفكير، بإهدائهم كتاباً. فهم لا يقرأون، إما لأنهم لا يشعرون بالحاجة إلى ذلك، وإما لأنهم مشغولون جداً بشيء آخر (وبالتالي النتيجة هي نفسها، كون هذا الشيء الآخر يملأ وقتهم ويشغلهم عن سواه)، وإما لأنهم يغذّون حباً آخر ويعيشونه بشكل

حصري مطلق. باختصار، هؤلاء الناس "لا يحبون القراءة". لكن هذا لا يمنع أن يكونوا ممن يعاشَرون، بل أن تكون معاشرتهم لذيذة (فهم، على الأقل، لا يطلبون منا "كلما دقّ الكوز بالجرة" أن نقول لهم رأينا عن آخر كتاب قرأناه، وهم يوفّرون علينا تحفظاتهم الساخرة على روائينا المفضل، ولا يعتبروننا مجانين لأننا سارعنا إلى شراء آخر كتاب لفلان الصادر عن دار نشر علتان، والذي قال عنه الناقد الفلاني كلاماً حسناً جداً). إنهم "إنسانيون"، مثلنا تماماً، وحسّاسون جداً أمام مصائب العالم، ومهتمون بـ"حقوق الإنسان" ومصرّون على احترامها ضمن نطاق تأثيرهم الشخصي، وهذا مما لا يُستهان به - ولكن المشكلة هي أنهم لا يقرأون. "يصطفلوا".

فكرة أن القراءة "تؤنسن الإنسان" صحيحة في مجملها، حتى لو عانت أحياناً من بعض الاستثناءات المزعجة. فلا شك أننا نصبح أكثر "إنسانيةً" بقليل - المقصود بذلك أننا نصبح أكثر تضامناً بقليل مع الجنس البشري (أي نصبح أقل "توحشاً") - بعد قراءة تشيخوف منا قبل قراءته.

لكن لنحذر من أن نرفق هذه الفكرة بنتيجة حتمية يُعتبر بموجبها، وبشكل مسبق، كل شخص لا يقرأ وحشاً محتملاً أو غبياً لا يُقارَب، وإلا فإننا سنحوّل القراءة إلى "إلزام أخلاقي"، وسيكون ذلك بداية تصعيد سيؤدي بنا في وقت قصير إلى الحكم، مثلاً، على "أخلاقية" الكتب نفسها، بالاستناد إلى معايير لا تحترم إطلاقاً حرية أخرى لا يمكن سلبها: أقصد حرية الإبداع. عندها سنصبح نحن الوحوش مهما كنا "قارئين" كباراً. وما أكثر الوحوش من هذا النوع على امتداد العالم!

بكلام آخر، "حرية الكتابة لا يمكنها أن تتلاءم مع واجب القراءة".

أما الواجب التربوي فإنه يقوم، في الحقيقة، عند تعليم الأطفال القراءة وتعريفهم بعالم الأدب، على إعطائهم الوسائل اللازمة للحكم بحرية إن كانوا يستشعرون "الحاجة للكتب" أم لا. لأنه، حتى لو تقبلنا تماماً فكرة أن يرفض إنسان عادي القراءة، فمن غير المطاق أبداً أن يكون هذا الإنسان - أو أن يظن نفسه - مرفوضاً من قبلها.

إنه لحزن عميق، وعزلة داخل العزلة، أن يكون المرء منفياً عن عالم الكتب - حتى لو كانت من الكتب التي يمكن الاستغناء عنها.

٢

الحق في القفز عن الصفحات

لقد قرأت **الحرب والسلم** للمرة الأولى وعمري اثنا عشر أو ثلاثة عشر عاماً (بالأحرى ثلاثة عشر، فقد كنت في الصف السابع ولم أكن "مسبّقاً"). فمنذ بداية العطلة، العطلة الصيفية، كنت أرى أخي (نفس الأخ الذي ذكرته بصدد **الرياح الموسمية**) يغوص في هذه الرواية الضخمة، وأرى نظره وقد أصبح بعيداً كنظر المكتشف الذي لم يعد يهتم لبلده الأم منذ وقت طويل.

- أهو كتاب جميل إلى هذا الحد؟
- رائع!
- عمّ يتكلم؟
- إنه قصة فتاة تعشق شاباً ثم تتزوج من شاب ثالث.

لقد تمتع أخي دائماً بموهبة التلخيص. ولو يقبل الناشرون بتشغيله كي يكتب "ملخّص الكتاب" (هذه الملخصات المثيرة للشفقة والتي تُلصق على الغلاف الأخير للكتاب لتحثّنا على القراءة) لوفّروا علينا كثيراً من الكلام الفارغ.

- هل تعيرني إياه؟
- بل أهبه لك.

كنت وقتها تلميذاً داخلياً، فكان هذا الكتاب هدية لا تُثمّن. مجلدان ضخمان قد يدفئانني طيلة الفصل الدراسي. ولم يكن أخي الذي كان يكبرني

بخمسة أعوام أبله تماماً (ولم يصبح أبله على فكرة) وكان يعرف أنه لا يمكن أن تُلخَّص الحرب والسلم بمجرد قصة حب، مهما كانت هذه القصة محبوكة بشكل جيد. لكنه كان يعرف أنني أفضّل ما يلهب المشاعر، ويعرف كيف يوقظ فضولي بملخصاته اللغزية. ("تربوي" في نظر قلبي). أعتقد أن اللغز الرياضي لجملته هو الذي جعلني أتخلى مؤقتاً عن سلسلتَي "المكتبة الخضراء" و"المكتبة الحمراء والمذهبة"، ومثلها سلسلة "علائم الطريق"[1]، لألقي بنفسي في هذه الرواية. "فتاة تعشق شاباً وتتزوج من ثالث"... لا أعتقد أن بإمكان أحد أن يقاوم. وبالفعل لم يخب أملي في هذه الرواية، رغم أن أخي أخطأ في حساباته. لأننا، في الواقع، كنا أربعة واقعين في حب ناتاشا: الأمير أندريه، و"الأزعر" أناتول (لكن هل يمكن أن نسمّي هذا حباً؟)، وبيير بيزوخوف، وأنا. وبما أنّ لم يكن لي أي حظ في ذلك، فقد كان لزاماً علي أن "أتقمص" شخصية الآخرين (إلا أناتول، فهو لعين حقيقي!).

ومما كان يزيد هذه القراءة متعة هو أنها كانت تتم في الليل، على ضوء مصباح جيب، تحت لحافي وقد اتخذ شكل خيمة في وسط مهجع من خمسين حالم وشخّير ومتقلب في نومه. وكانت خيمة المراقب، حيث كانت تضيء "النوّاصة"، قريبة جداً، لكن لا يهم، ففي العشق يغامر المرء بكل شيء. مازلت أحس بسماكة هذين المجلدين وثقلهما بين يدي. كانا مجلدين من سلسة الجيب، عليهما الوجه الجميل لأودري هِببُرن تحت نظر مِل فيرر[2] الذي يبدو كأمير بجفنيه الثقيلين كجفني طائر جارح عاشق. لقد قفزت من فوق ثلاثة أرباع الكتاب، مركزاً اهتمامي على ما يتعلق بحب ناتاشا. لقد حزنت، رغم كل شيء، لأناتول عندما قُطعت ساقه، ولعنت الأمير أندريه الفظّ لأنه بقي واقفاً أمام كرة المدفع، في معركة بورودينو... ("ولك العمى! انبطحْ على الأرض، يا ابن...، فالانفجار وشيك، وعليك أن تتجنب الإصابة

١ أسماء مجموعات كتب خاصة بالأطفال والناشئة. السلسلتان الأولى والثانية تحملان هذين الاسمين دلالةً على لون الغلاف. (م)

٢ أودري هِببُرن ومِل فيرر مثّلا في فيلم شهير مستقى من الحرب والسلم ويحمل نفس العنوان. (م)

فهي تحبك!")... لقد اهتممت بالحب وبالمعارك وقفزت من فوق شؤون السياسة والاستراتيجيا... وبما أن نظريات كلوسفيتز كانت عصيّة على فهمي فقد عصيت قراءتها... وقد تتبعت عن قرب الخيبات الزوجية لبيير بيزوخوف وزوجته هيلين ("ليست باللطيفة"، فعلاً لم أكن أجد هيلين لطيفة...) وتركت تولستوي يحاضر بمفرده عن المشاكل الزراعية لروسيا الخالدة...

نعم، لقد قفزت عن صفحات كثيرة.

وعلى كل الأطفال أن يفعلوا ذلك.

وهكذا يمكنهم، في سن مبكر، أن يقرأوا تقريباً كل الروائع التي تعتبر صعبة بالنسبة لأعمارهم.

فإن كانوا يرغبون في قراءة **موبي ديك** لكنهم يترددون أمام تفاصيل ملفيل عن أدوات وتقنيات صيد الحيتان، عليهم ألاّ يتخلوا عن قراءتهم بل أن يقفزوا، أن يقفزوا هذه الصفحات وأن يلاحقوا "أشاب" دون الاهتمام بالباقي، كما يلاحق هو الهدف الأبيض لحياته ولموته! وإن أرادوا التعرف على إيفان وديمتري وأليوشا كرامازوف وأبيهم اللامعقول، فما عليهم إلا أن يفتحوا ويقرأوا **الإخوة كرامازوف**، فهي مكتوبة "من أجلهم"، حتى لو توجّب عليهم القفز عن وصية الراهب زوسيما أو عن ملحمة المفتش الكبير.

هناك خطر كبير يحدق بهم إن لم يقرروا بأنفسهم ما يناسبهم وذلك بالقفز عن الصفحات التي اختاروها، "وإلا قام آخرون بذلك مكانهم". إذ سيتسلح هؤلاء بمقص الحماقة الكبير وسيقصّون ما يرون أن "صعب" جداً عليهم. ولهذا الفعل نتائج مرعبة. **موبي ديك** أو **البؤساء** وقد لُخّصت في ١٥٠ صفحة، فشُوّهت، وخُرّبت، وقُزّمت، وحُنّطت، بأن "أُعيدت كتابتها" لأجلهم بلغة فقيرة يُفترَض أنها لغتهم! كما لو أني حشرت نفسي فأعدت رسم "غِرنيكا" بحجة أن بيكاسو وضع فيها كثيراً من الخطوط بما لا يناسب عيناً عمرها اثنتا عشرة أو ثلاث عشرة سنة.

ثم إننا حتى عندما نصبح "كباراً"، ونرفض أن نعترف بذلك، فإنه يحدث أحياناً أن "نقفز من فوق الصفحات"، لأسباب لا تخصّ إلاّنا والكتاب الذي نقرأه. ويحدث أحياناً أن نمنع أنفسنا إطلاقاً من هكذا تصرّف، وأن نقرأ كل

الكتاب حتى آخر كلمة، ونحكم بأن الكاتب أطال في هذا المكان، وأنه في هذا المكان الآخر يغنّي على شبابّة لحناً لا داعي له، وأنه في مكان آخر استسلم إلى التكرار وفي مكان آخر أيضاً إلى البلاهة. ومهما قلنا عن ذلك فإن الملل العنيد الذي نفرضه على أنفسنا حينئذٍ لا علاقة له بالـ"واجب"، بل هو شكل من أشكال متعتنا كقارئين.

٣

الحق في عدم إنهاء كتاب

هناك ستة وثلاثون ألف سبب يمكن أن تدفعنا إلى ترك رواية قبل الوصول إلى نهايتها: الشعور بأننا سبق وقرأنا نفس الكلام، أو قصة لا تشدّ انتباهنا، أو معارضتنا التامة لأطروحات الكاتب، أو أسلوب يجعل شعر رأسنا يقف، أو بالعكس غياب الأسلوب وعدم وجود ما يعوّض عن ذلك ويدفعنا إلى المتابعة... لا فائدة من تعداد الـ ٣٥٩٩٥ سبباً الباقية والتي تشمل نخر الأسنان وضغوطات رئيسنا في العمل، أو زلزالاً أصاب قلبنا فعطّل عمل الدماغ.

أيسقط الكتاب من بين أيدينا؟

فلندعه يسقط.

ففي نهاية المطاف لا يمكن لأي شخص أن يكون مونتيسكيو وأن يكون بمقدوره أن يتمتع، وفق طلبه، بتعزية ساعة من القراءة.

لكن، من بين أسباب تخلينا عن متابعة كتاب ما، هناك سبب يستحق أن نتوقف عنده قليلاً: الشعور المبهم بالـ"هزيمة". فمثلاً أفتح الكتاب، وأقرأ، لكن سرعان ما أشعر بأني مفعم بشيء أحس أنه "أقوى" مني. فأجمع خلاياي العصبية وأتصارع مع النص، لكن دون جدوى. ورغم شعوري بأن ما هو مكتوب يستحق أن يُقرأ، فإني لا أفقه شيئاً – أو ما لا يُذكر – وأشعر بـ"غرابة" لا سلطة لي عليها.

فأتخلى عن الكتاب.

أو، بالأحرى، أدعه جانباً. أرتّبه في مكتبتي وبذهني مشروع غامض بأني سأعود إليه ذات يوم. فروايات بيترسبورغ لأندريه بيلي وأوليس لجويس وفوق البركان لمالكوم لوري انتظرتني عدة سنوات. وهناك كتب أخرى مازالت تنتظرني، ومن المحتمل أن بعضاً منها لن أعود إليه نهائياً. ليس الأمر مأساوياً، هكذا هي الأمور. مفهوم "النضج" هو شيء غريب فيما يتعلق بالقراءة. فحتى سنّ معينة كنّا صغاراً على بعض القراءات. ليكن. لكن الكتب الجيدة لا تتعتّق، بعكس قناني النبيذ الجيد. فهي تنتظرنا على رفوف مكتباتنا، ونحن من يشيخ. وعندما نعتقد أننا صرنا "ناضجين" بما فيه الكفاية لكي نقرأها نعود إليها من جديد. وهنا أمر من اثنين: إما أن يتم اللقاء، وإما أن يتكرر الفشل. وربما حاولنا مرة أخرى، وربما لا. لكن من المؤكد أن الخطأ ليس خطأ توماس مان إن لم أستطع حتى الآن أن أصل إلى قمة جبله السحري.

الرواية الكبيرة التي لا تنصاع لنا ليست بالضرورة "أصعب" من غيرها... لكن بينها - مهما كانت عظمتها - وبيننا - مهما بلغت درجة تقديرنا لقدرتنا على "فهمها" - ليس هناك تفاعل كيميائي. ويمكن ذات يوم أن "ننسجم" مع أعمال بورخِس التي كانت تفصلنا عنها مسافة حتى الآن، لكننا ربما نبقى طيلة حياتنا غرباء عن أعمال موزيل...

هنا، لدينا الخيار: إما أن نظن أنها "غلطتنا"، وأن عقلنا ناقص، وأن فينا بعضاً من حماقة لا يمكن قهرها، أو أن نبحث من جهة المفهوم المُتجادل عليه، أقصد مفهوم "الذوق"، وأن نحاول وضع لائحة بأذواقنا.

إنه لمن الحكمة أن نطلب من أطفالنا اتّباع هذه الطريقة الأخيرة.

خاصةً أن بإمكانها أن تقدم لهم المتعة النادرة التالية: أن نعيد القراءة وقد فهمنا "لماذا" لا نحب هذا الكتاب. وهذه المتعة النادرة الأخرى: أن نسمع، دون تأثّر، مدّعي العلم الجاهل المسؤول عنّا يصرخ في آذاننا:

- ماذاااااااا! أيُعقل؟ ألا تحب ستانداااااااال؟

نعم، يُعقل.

٤

الحق في إعادة القراءة

إعادة قراءة ما رفضني في المرة الأولى، إعادة القراءة دون القفز عن بعض المقاطع، إعادة القراءة من منظور جديد، إعادة القراءة للتأكد، نعم... إننا نمنح أنفسنا كل هذه الحقوق.

لكننا نعيد القراءة قبل كل شيء بلا هدف، لمجرد متعة التكرار، ولفرح اللقيا، ولوضع الحميمية على المحك.

"أيضاً، أيضاً"، هكذا كان يهتف الطفل الذي كنّاه. إعادتنا لبعض القراءات ونحن بالغين تشكّل جزءاً من هذه المتعة: الافتتان بديمومة الأشياء، وأن نجدها في كل مرة مفعمةً باندهاشات جديدة.

٥

الحق في قراءة أي شيء

فيما يتعلق بالـ"ذوق"، فإن بعضاً من طلابي يعانون كثيراً عندما يجدون أنفسهم أمام موضوع التعبير التقليدي جداً: "هل يمكن أن نتكلم عن روايات جيدة وروايات سيئة؟" وبما أنهم غالباً لطفاء، رغم مظهرهم الذي يقول "أنا لا أتنازل عن شيء"، فهم يعالجون الموضوع من جانبه الأخلاقي فقط بدل أن يدرسوا جانبه الأدبي، وبالتالي فهم لا يعالجون السؤال إلا من زاوية الحريات. وهكذا فإن مجموع مواضيعهم يمكن تلخيصها بهذه العبارة: "لا، لا، ما هذا الكلام؟ بإمكاننا أن نكتب كل ما نريد، وكل الأذواق، من ناحية القرّاء، موجودة في الطبيعة!".

نعم، نعم، نعم... إنه موقف مشرّف تماماً...

لكن هذا لا يمنع أن هناك روايات سيئة، ويمكن أن نذكر أسماء وأن نقدّم أدلة.

لكي لا نطيل دعونا نتكلم بالجملة: يمكننا القول إن هناك ما يمكن تسميته "الأدب الصناعي" الذي يكتفي بإعادة إنتاج لا نهائية لنفس القصص، ويلفظ باضطراد نماذج بشرية منمّطة كما تلفظ المعامل بضاعتها، ويتاجر بالمشاعر والأحاسيس القوية، ويستغل كل الفرص التي تقدمها الأخبار اليومية لكي "يَبيض" قصة خاصة بهذا الخبر أو ذاك، ويقوم بـ"دراسة السوق" لكي يبيع، حسب "حالة السوق"، هذا "المنتوج" أو ذاك، الذي يُفترض أنه سيثير

إعجاب هذه الفئة أو تلك من القراء.

هذه الروايات هي روايات "سيئة"، بالتأكيد.

لماذا؟ لأن لا علاقة لها بالإبداع، بل هي إعادة إنتاج لـ"أشكال" سابقة؛ ولأنها عملية تبسيط (أي عملية كذب) في حين أن الرواية فن حقيقة (أي فن تعقيد)؛ ولأنها، إذ تدغدغ آلياتنا، تنيم فضولنا؛ وأخيراً، وبشكل خاص، لأن الكاتب "لا وجود له فيها"، ولا الواقع الذي يدّعي وصفه لنا.

باختصار، أدب "جاهز" للمتعة، مصنوع في قالب ويودّ لو أنه يقولبنا معه.

لا تظننّ أن هذه الحماقات ظاهرة حديثة العهد مرتبطة بدخول الكتاب عصر التصنيع. لا، أبداً. فاستغلال ما يثير الأحاسيس، والتهاب المشاعر العابر، والرعشة السهلة في جمل لا كاتب فيها، ليست أموراً حديثة العهد. ولا أريد هنا أن أذكر سوى مثالين، فقد تورطت فيها قصص الفروسية ثم الرومانسية بعدها بوقت طويل.

وبما أنه "لا تكرهوا شيئاً عساه خيراً" فإن ردة الفعل على هذا الأدب الذي حاد عن الطريق وهبتنا اثنتين من أجمل الروايات في العالم: **دون كيشوت** و**مدام بوفاري**.

هناك إذاً روايات "جيدة" وروايات "سيئة".

وفي أغلب الأحيان، أول ما نصادفه على طريقنا هي الروايات السيئة.

وبصراحة، عندما جاء دوري، أذكر أنني وجدت هذه الروايات "مليحة كتير". لقد كان حظي كبيراً: فلم يسخر أحد مني، ولم يرفع أحد عينيه إلى السماء، ولم يصفني أحد بالغبي. فقط، تُركَت، على طريقي، بعض الروايات "الجيدة" دون أن تُمنع عني الروايات الأخرى.

كان ذلك تصرفاً حكيماً.

ولفترة ما، نقرأ كل شيء، الحسن والرديء. كما أننا لا نتخلى، بين عشية وضحاها، عن قراءات طفولتنا. هكذا تختلط الأشياء. فنخرج من **الحرب والسلم** لنغوص من جديد في روايات "المكتبة الخضراء"؛ ونترك مجموعة "هارلُكان" (وهي قصص تتحدث عن أطباء وسيمين وممرضات مستحقات للاحترام) لننتقل إلى بوريس باسترناك وروايته **الدكتور جيفاغو** – وهو أيضاً

طبيب، ولارا ممرضة مستحقة للاحترام تماماً!

ثم يأتي يوم ينتصر فيه باسترناك.

بشكل غير محسوس، تحثّنا رغباتنا على معاشرة "الحَسن". فنبحث عن كتّاب، ونبحث عن كتابات. لقد انتهى زمن الاكتفاء بأصدقاء اللعب وحدهم، وحان زمن المطالبة بـ"رفاق" الكينونة. الحكاية وحدها لم تعد تكفينا. لقد حلّ الوقت الذي صرنا نطالب فيه الرواية بشيء آخر غير الإرضاء المباشر والحصري لأحاسيسنا.

تكمن إحدى أكبر فرحات "التربوي" - حيث كل قراءة مسموحة - في رؤية أحد تلاميذه يغلق بنفسه باب معمل "الكتب الناجحة" لكي يصعد ويملأ رئتيه بالهواء عند الصديق بلزاك.

٦

الحق في البوفارية
(مرض ينتقل نصياً)

هذه هي، باختصار، "البوفارية"، إنها الإرضاء المباشر والحصري لأحاسيسنا: ينتفخ الخيال، تتوتر الأعصاب، يتسارع القلب، ينتشر الأدرينالين، ويتم التماهي على كل المستويات، وينخدع الدماغ (مؤقتاً) بشكل كبير...

إنها "حالتنا" الأولى، كلنا، كقرّاء.

ما ألذّها.

لكنها حالة مرعبة تماماً بالنسبة للمراقب البالغ الذي يسرع، في أغلب الأحيان، إلى إشهار "كتاب جيد" في وجه البوفاريّ الشاب، وهو يصيح:

– بشرفك، أليس موباسان "أفضل"، آ؟

مهلاً... يجب ألاّ نقع، نحن أيضاً، في البوفارية، وأن نقول إن إيمّا ليست، في النهاية، سوى شخصية روائية، أي نتيجة للحتمية التي أدت بموجبها الأسباب التي زرعها غوستاف إلى النتائج التي تمنّاها فلوبير – مهما كانت درجة صحة هذه النتائج.

بكلام آخر، إن كانت ابنتي تقرأ روايات مجموعة "هارلُكان" فلا يعني ذلك أنها ستموت بابتلاعها الزرنيخ[1] بالمغرفة.

---

١ كما يحدث في روايات العشق الرخيصة. (م)

فإذا فرضنا عليها رأينا في هذه المرحلة من قراءاتها، نكون قد حكمنا على أنفسنا بالابتعاد عنها بإنكارنا مراهقتنا نحن أنفسنا. ونكون أيضاً قد حرمناها من المتعة، التي لا تعادلها متعة، في أن تتخلى بنفسها غداً عن النماذج النمطية التي تثيرها كثيراً اليوم.

من الحكمة أن نتصالح مع فترة مراهقتنا؛ فكرهنا واحتقارنا وإنكارنا، أو، بكل بساطة، نسياننا للمراهق الذي كنّاه، هو في حد ذاته موقف مراهق وفهم للمراهقة على أنها مرض قاتل.

من هنا كانت ضرورة أن نتذكر أولى انفعالاتنا كقرّاء، وأن نقيم تمثالاً لقراءاتنا الماضية، بما فيها قراءاتنا الأكثر "غباءً". فهي تلعب دوراً قيّماً جداً: إنها تثير عواطفنا أمام ما كنّا عليه ونحن نضحك مما كان يثير عواطفنا. وسيزداد بالتأكيد احترام وحنان الصبيان والبنات الذين يقاسموننا حياتنا.

وأن نقول كذلك إن البوفارية هي – مع بضعة أشياء أخرى – أكثر شيء يشترك فيه الناس في العالم: فالمرء لا يراها إلا عند الآخرين. وفي نفس الوقت الذي نزدري فيه غباء قراءات المراهقين، ليس من النادر أن نعمل على نجاح كاتب حسن الحضور على التلفاز، والذي نسخر منه بخبث ما إن تنتهي موضته. وجود أدباء معشوقين، يمكن أن نفسّره بشكل كبير بهذا التناوب بين تهافتنا المتبصّر وإنكارنا الثاقب.

فنحن لا نُخدع أبداً، ودائماً ذوو بصيرة، نمضي وقتنا في الحلول محل أنفسنا، مقتنعين إلى الأبد بأن مدام بوفاري موجودة عند الآخرين فقط.

لا بد أن إيمّا كانت تشاركنا القناعة ذاتها.

٧

الحق في القراءة في أي مكان

"شالون – سور– مارن"[١]، ١٩٧١، في فصل الشتاء.

ثكنة مدرسة المدفعية التطبيقية.

أثناء توزيع "السخرة" صباحاً يتطوع العسكري فلان (حامل الرقم العسكري ١/١٤٦٧٢) للقيام بالسخرة التي يتجنبها الجميع، السخرة الأكثر جحوداً، والتي غالباً ما تُفرض كعقوبة ويتحاشاها أكثر المحترمين صلابة: أقصد السخرة الشهيرة، المحِطّة للقدر، الملعونة الاسم، "سخرة المراحيض".

يطلبها كل صباح.

ودائماً بنفس الابتسامة (الداخلية).

– سخرة المراحيض؟

يقوم بخطوة للأمام:

– فلان!

وبخطورة شديدة، كخطورة ما قبل الهجوم، يمسك بالمكنسة التي تتدلى منها الممسحة القماشية، كما لو أنه يمسك ببيرق سريته، ويختفي، مرافقاً بارتياح كبير من باقي العناصر. إنه لشجاع إذ لا أحد يتبعه. فالجيش بأكمله

١ مدينة شمال شرق فرنسا. (م)

يبقى مختبئاً في خندق السخرات المشرّفة.

تمضي الساعات، ويظن الآخرون أنه تاه، وينسونه تقريباً، بل ينسونه فعلاً. لكنه يظهر في نهاية الفترة الصباحية، ويضرب نعله في الأرض لتأدية تقريره لمساعد السرية: "المراحيض نظيفة تماماً، حضرة المساعد!" ويستعيد المساعد المكنسة والممسحة وفي عينيه تساؤل عميق لا يفصح عنه. (فاحترام الإنسان واجب). يؤدي العسكري التحية، ويدور على عقبيه، ثم ينطلق حاملاً سرّه معه.

وهذا السر يشكل ثقلاً لا بأس به في الجيب اليمين لبدلته العسكرية: مجلد من ١٩٠٠ صفحة من سلسلة "البلياد" يضمّ أعمال نيكولاي غوغول. ربع ساعة مسّاحة مقابل فترة صباحية كاملة مع غوغول... كل صباح، منذ شهرين شتائيين، يقوم المجند فلان، وهو جالس على "العرش"[١] بعد أن أقفل الباب جيداً خلفه، بالتحليق عالياً فوق عوارض الحياة العسكرية. كل غوغول! من **سهرات أوكرانيا** الحنينيّة إلى **قصص بيترسبورغ**، مروراً برواية **تاراس بولبا** المهولة، وبالسخرية السوداء لـ"النفوس الميتة"، إضافة إلى مسرحيات ومراسلات غوغول، هذا "الطرطوف" الكبير.

لأن غوغول هو "طرطوف" الذي ربما كان خلق موليير – وربما ما كان الجندي فلان ليفهم ذلك لو أنه ترك هذه السخرة لغيره.

إن الجيش يحب الاحتفال بمآثر رجاله في الحروب.

ومن هذه المأثرة لم يبقَ سوى بيتين من الشعر، محفورين عالياً جداً على "سيفّون" المرحاض، وهما بيتان من أفخم أبيات الشعر الفرنسي:

نعم، أؤكد، ودون كذب – اجلس أيها التربويّ –
أني قرأت كل غوغول في المرحاض الهنيّ.

---

١ كناية عن كرسي المرحاض.

(من جهته، كان كليمانسو العجوز، الملقّب بـ"النمر"، وهو أيضاً عسكري شهير، كان يلهج بشكر "كتام" مزمن لولاه، حسبما كان يؤكد، لما تمتّع بسعادة قراءة **مذكرات** سان سيمون).

٨

الحق في أن نقطف من هنا وهناك

أنا أقطف، نحن نقطف، فلندعهم يقطفون من هنا وهناك.

المقصود أن نسمح لأنفسنا بتناول أي مجلد من مكتبتنا وفتحه عشوائياً والغرق فيه للحظة، لأننا فعلاً لا نملك سوى هذه اللحظة بالذات. لبعض الكتب استعداد أكثر من غيرها لأن نتنقل فيها على هوانا، كونها تتألف من نصوص قصيرة ومنفصلة: كالأعمال الكاملة لألفونس الي، أو وودي ألين، كقصص كافكا أو ساكي، كالأوراق الملصقة لجورج بيرّوس، وأعمال العجوز الطيب لاروشفوكو، وأغلب الشعراء...

مع ذلك، يمكننا أن نفتح كتب بروست أو شكسبير، أو مراسلات ريمون شاندلير، على أية صفحة، والتنقل هنا وهناك، دون أدنى خطر في أن يخيب أملنا.

إن لم يكن لدينا الوقت ولا الإمكانية لقضاء أسبوع في البندقية، فلماذا نرفض أن نقضي خمس دقائق فيها؟

٩

الحق في القراءة بصوت عال

سألتها: أكان هناك من يقرأ على مسمعك قصصاً بصوتٍ عالٍ عندما كنت صغيرة؟

فأجابتني: أبداً. إذ غالباً ما كان أبي مسافراً وأمي مشغولة جداً.

سألتها: إذن، من أين جاءك حب القراءة بصوتٍ عالٍ؟

فأجابتني: من المدرسة.

فهتفت بفرح لسعادتي بسماع أن هناك من يعترف بفضل المدرسة: آه! أترين!

فقالت لي: إطلاقاً. فقد كانت المدرسة "تمنعنا" من القراءة بصوت عالٍ. كانت القراءة الصامتة من وقتها عقيدة العصر. مباشرةً من العين إلى الدماغ. نقل مباشر. سرعة، ونجاعة. مع تمرين فهم كل ستة أسطر. ديانة التحليل والشرح، منذ البداية! كان أغلب التلاميذ يموتون رعباً، ولم تكن تلك إلا البداية! إذا كنت تريد أن تعرف، فكل إجاباتي أنا كانت صحيحة، لكني عند عودتي من المدرسة كنت أعيد قراءة كل شيء بصوتٍ عالٍ.

– لماذا؟

– لأن ذلك كان يسحرني. فقد كانت الكلمات الملفوظة تبدأ بالتجسد خارجي أنا، كانت تحيا فعلاً. وعلاوةً على ذلك، كان الأمر يبدو لي فعل عشق، بل العشق ذاته. كان لدي دائماً انطباع بأن حب الكتاب يمرّ عبر الحب

ذاته. كنت أمدّد دُماي في سريري، مكاني أنا، وأقرأ لها. وكان يحدث أحياناً أن أنام قرب أقدامها، على البساط.

أصغي إلى قراءتي... أصغي إليها، فيبدو لي أنني أسمع ديلان توماس، ثملاً كاليأس، وهو يقرأ قصائده بصوته الذي يشبه الأصوات الكاتدرائية...

أصغي إليها فيبدو لي أنني أرى ديكنز العجوز، ديكنز الهزيل الجسد والشاحب الوجه، في آخر أيامه، يصعد على خشبة المسرح... وجمهوره الكبير من الأميين وقد جمد فجأةً وصمت لدرجة أن الكتاب يُسمع وهو يُفتح... **أوليفر تويست**... موت نانسي... سيقرأ لنا موت نانسي!...

أصغي إليها وأسمع صوت كافكا يضحك حتى الثمالة وهو يقرأ **التحوّل** على مسمع ماكس برود الذي يجد صعوبة في المتابعة... وأرى ماري شيلي الصغيرة تقرأ أجزاء مطولة من كتابها **فرانكنشتاين** لبيرسي وللأصدقاء المذهولين...

أصغي إليها وأتخيل مارتان دو غار وهو يقرأ كتابه **آل تيبو** لأندريه جيد... إنهما جالسان على حافة نهر... مارتان دو غار يقرأ، لكن نظر جيد في مكانٍ آخر... لقد رحلت عينا جيد إلى هناك، إلى حيث يغطس مراهقان... كمالٌ يسربله الماء بالضياء... مارتان دو غار غاضب... لا، لقد قرأ جيداً... وجيد سمع كل شيء... ويكيل له جيد المديح حول هذه الصفحات... لكن، مع ذلك، ربما يلزم تعديل هذا الشيء وذاك، وتغيير شيء من هنا وآخر من هناك...

ودوستويفسكي، الذي لم يكن يكتفي بالقراءة بصوت عالٍ، بل كان "يكتب" بصوت عالٍ... دوستويفسكي، وقد انقطع نفسه، بعد أن قدّم، وهو يصرخ، مرافعته ضد راسكولنيكوف (أو ديمتري كارامازوف، لم أعد أدري)... دوستويفسكي يسأل آنّا غريغوريفنا، الزوجة مختزلة النصوص: "ما قولك؟ ما هو القرار برأيك؟ آ، آ؟".

آنّا: مدان!

ودوستويفسكي نفسه، بعد أن أملى عليها مرافعة الدفاع... "آ، آ، ماذا تقولين؟".

آنّا: بريء!

نعم...

إنه لأمر غريب اختفاء القراءة بصوت عالٍ. ما كان سيكون رأي دوستويفسكي بذلك؟ وفلوبير؟ انتهت إمكانية تذوق طعم الكلمات في الفم قبل حشو الرأس بها؟ انتهى دور الأذن؟ انتهت الموسيقى؟ لم يعد هناك لعاب، ولا تذوّق لطعم الكلمات، وماذا أيضاً، آ؟ ألم يصرخ فلوبير روايته **مدام بوفاري** حتى ثقب طبلتي أذنيه؟ أليس مؤهلاً أكثر من كل الآخرين، قطعاً، لمعرفة أن فهم النص يمرّ عبر صدى الكلمات التي يتحدر منه معناها؟ فلوبير الذي طالما تصارع مع موسيقى المقاطع التي ليست في محلها وحارب ضد تسلط الإيقاع، أليس هو من يعرف، أكثر من أي شخص آخر، أن المعنى يُلفظ؟ ماذا؟ نصوص صامتة لأذهان صرفة؟ إليّ يا رابليه! إليّ يا فلوبير! ويا دوستويفسكي! ويا كافكا! ويا ديكنز! أنتم يا صارخي المعاني الكبار، تعالوا إليّ فوراً! تعالوا انفخوا في كتبكم! فكلماتنا بحاجة إلى أجساد! فكلماتنا بحاجة إلى حياة!

صحيح أن صمت النص مريح... إذ لا مخاطرة هنا في موت ديكنز بعد إحدى قراءاته العامة المتعبة جداً... النص والذات... كل هذه الكلمات وقد كُمّت أفواهها في المطبخ الرخيّ لذكائنا... كم نشعر بأهميتنا خلال هذا النسج الصامت لشروحاتنا!... ثم إننا عندما نحكم على الكتاب خارجنا فإننا لا نخاطر بأن يحكم هو علينا... لأنه ما إن يتدخل الصوت حتى يفصح الكتاب عن أشياء كثيرة تخصّ قارئه... فالكتاب يقول كل شيء.

الإنسان الذي يقرأ بصوتٍ عالٍ يكشف عن نفسه تماماً. فإن كان لا "يعرف" ما يقرأ، فجهله يظهر من خلال كلماته، وهو أمر تعيس، يُسمَع. وإن رفض أن يحلّ في قراءته، فإن الكلمات تبقى بلا حياة، ويُحَس بذلك. وإن ملأ النص بحضوره، فإن الكاتب يتراجع ونصبح أمام عرضِ سيرك، وهذا أمر يُرى. الإنسان الذي يقرأ بصوتٍ عالٍ يعرّض نفسه تماماً للعيون التي تسمعه.

وإن قرأ بشكل حقيقي، وإن استخدم لذلك معارفه وتحكّم بنفس الوقت بلذته، وإن كانت قراءته قراءة "تعاطف" مع جمهور المستمعين وكذلك مع

النص وكاتبه، وإن توصل إلى جعلنا "نسمع" ضرورة الكتابة بإيقاظه فينا أكثر حاجاتنا للفهم غموضاً، عندها تفتح الكتب مصاريع أبوابها، ويتسارع للدخول منها حشود أولئك الذين يعتقدون أنهم منفيون عن القراءة.

١٠

الحق في أن نصمت

يبني الإنسان بيوتاً لأنه يعرف أنه حي، لكنه يكتب كتباً لأنه يعلم أنه فانٍ. وهو يعيش ضمن جماعات لأن لديه غريزة التجمع، لكنه يقرأ لأنه يعلم أنه وحيد. وهذه القراءة هي صحبة له لا تحلّ مكان أية صحبة أخرى، ولا تستطيع أية صحبة أخرى أن تحلّ محلها. وهي لا تقدم له أي تفسير قطعي حول مصيره، لكنها تنسج شبكة متينة من التواطؤات بينه وبين الحياة. تواطؤات متناهية الصغر وسرية تعبّر عن سعادة العيش المتناقضة في نفس الوقت الذي تبيّن فيه عبث الحياة المأساوي. بحيث أن الأسباب التي تدفعنا للقراءة غريبة كغرابة الأسباب التي تدفعنا للعيش. ولم يُفوَّض أحد ليحاسبنا على هذه الحميمية.

البالغون القلائل الذين أعطوني كتباً لأقرأها تلاشوا دائماً أمام الكتب وتجنّبوا تماماً أن يسألوني إن كنت قد "فهمت". هؤلاء، طبعاً، كنت أكلّمهم عن قراءاتي.

إن كانوا أحياء أم أمواتاً، أهدي إليهم هذه الصفحات.